أثر التناسب في اصطفاء الأساليب في سورة الضحى

د/ منى طه الداودي محمد

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

(العدد الرابع والثلاثون)

(الإصدار الثاني .. أكتوبر)

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م)

أثر التناسب في اصطفاء الأساليب في سورة الضحى

منى طه الداودي محمد
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني: omzeyad2121984@gmail.com

ملخص البحث:

انتظم البحث في مقدمة، وتمهيد، وخمسة مطالب، يتلوها خاتمة، وفهارس.

١-المقدمة: تناولت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، والمنهج المتبع فيه.

٢- التمهيد: جاء الحديث فيه عن أمرين: أولًا: مفهوم علم المناسبة وأهميته. ثانيًا: فضل سورة الضحى وبيان المقصد منها.

٣-المطلب الأول: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب القسم.

٤- المطلب الثاني: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب النفي الواقع في جواب القسم.

٥- المطلب الثالث: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب التأكيد.

٦- المطلب الرابع: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب الاستفهام.

٧- المطلب الخامس: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب الشرط.

٨- الخاتمة وتحوي أهم نتائج البحث.

٩- الفهارس وتحوي فهرسًا للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

الكلمات المفتاحية: (التناسب ـ أسلوب ـ اصطفاء ـ أثر ـ النظم)

The effect of Proportionality in selecting the Rhetorical Devices and Styles in Surat Al-Duha.

Mona Taha Eldawody Mohammed
Department of Rhetoric and criticism -Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Port-Said AL-Azhar University- Egypt.
Email:omzeyad2121984@gmail.com

Abstract: The research was organized into an Introduction, Preface, five Topics, followed by a Conclusion & indexes.
1- ***Introduction***: I discussed the importance of the research, the reasons why I picked that title, and the plan and the methodology of the research.
2-***Preface***: I addressed two points:
1st: The meaning and concept of *Proportionality* and its importance.
2nd: The Reasons of the Revelation for Surat Al-Duha.
3- ***Topic I***: The effect of Proportionality in selecting "Oaths" style.
4- Topic II: The effect of Proportionality in selecting the "Negation within the answer of oath" style.
5- ***Topic III***: The effect of Proportionality in selecting the "Emphasis "style.
6: ***Topic IV***: The effect of Proportionality in selecting the "Interrogation" style.
7-***Toipc V***: The effect of Proportionality in selecting the "Condition" style.
8-***Conclusion***: Includes the most important results of the research.
9 – ***Indexes***: Includes index of sources and references and another index for topics.
Keywords: (Proportionality – Style –Selection – Effect – Versing).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله الطيبين، وصحابته الغر الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فسورة الضحى سورة تبعث على التفاؤل والأمل، تسري بين آياتها نسائم الخيرات، وتتنسم منها عبير الرحمات، سورة تَدْخُل على القلوب الحزينة لتُسعدها، وتعانق الأرواح المكروبة لترتفع بها في سماء الرضا، هي سورة تُشعِر بأن الخير قادم، وأن المستقبل أفضل من الماضي، وأن اليقين وحسن الظن بالله مآله إلى الخير دائمًا، وعقباه إلى كل جميل وإن كان ظاهر الأمر خلاف ذلك.

ولقد تناسبت معاني آيات سورة الضحى، وتنوعت أساليبها، وتآزرت فيما بينها حتى صارت كأجزاء الكلمة الواحدة؛ تنادي كل آية على أختها، ويستدعي كل معنى من معانيها الأسلوب الذي جاءت عليه آياتها، فكان لتناسب معانيها أثره في اصطفاء أساليبها، ودوره في إيثار كل لفظة من ألفاظها.

ويتجلى دور علم التناسب في المساعدة على فهم النص القرآني، وإيضاح معناه، والإسهام بشكل كبير في إبراز الروابط والصلات بين آياته، ومن ثم فإن هذا العلم سبيل من سبل الكشف عن بعض أوجه إعجاز القرآن الكريم، مما يكون له أكبر الأثر في ترسيخ العقيدة في القلوب؛ لأجل هذا توجهت إلى سورة الضحى بدراسة بلاغية جاءت بعنوان: " **أثر التناسب في اصطفاء الأساليب في سورة الضحى**".

وقد دفعني إلى دراسة هذا الموضوع عدة أسباب أهمها:ـ

أولًا: التدبر والتأمل في آيات سورة الضحى؛ لبيان ارتباط كل آية منها بأختها، وإبراز وجه التناسب بينها؛ للوقوف على دور هذا التناسب في تحقيق مطابقة الكلام لمقتضى الحال من جانب، وفهم النص القرآني، والتعرف على

بعض أوجه إعجازه من جانب آخر.

ثانيًا: الكشف عن أثر التناسب بين الآيات في اصطفاء أساليب سورة الضحى، وإيضاح السمات البلاغية لكل أسلوب، وإبراز دور تعانق الألفاظ والجمل والحروف في الكشف عن دقة بلاغتها.

ثالثًا: إيثار سورة الضحى بالدراسة؛ لتذكير النفس ـ بصفة خاصة ـ وطلاب العلم ـ بصفة عامة ـ بما حدث مع النبي ـ ﷺ ـ في بداية بعثته، وبعض ما كان يواجهه من ابتلاءات، وكأن سورة الضحى تثبيت لكل راغب في العلم على طريق طلب العلم، وتثبيت لكل مبتلى؛ ليجعل من المصطفى ـ ﷺ ـ القدوة التي يتأسى بها؛ فسورة الضحى تبشِّر بأن الصبر عقباه إلى الخير دائمًا، ومآله إلى الرضا.

وقد انتظمت خطة البحث في مقدمة وتمهيد وخمسة مطالب وخاتمة، أما المقدمة فقد اشتملت على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والخطة التي انتظمها البحث، والمنهج المتبع في الدراسة.

وفي التمهيد جاء الحديث عن مفهوم علم المناسبة وأهميته، وفضل سورة الضحى، وبيان المقصد منها.

وجاءت مطالب الدراسة على النحو الآتي:

المطلب الأول: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب القسم.

المطلب الثاني: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب النفي الواقع في جواب القسم.

المطلب الثالث: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب التأكيد.

المطلب الرابع: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب الاستفهام.

المطلب الخامس: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب الشرط.

ثم تأتي خاتمة البحث وتحوي أهم النتائج، ثم الفهارس.

والمنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم على استقراء آيات السورة الكريمة ـ محل الدراسة ـ وتتبع الأساليب التي

تضمنتها، ثم تصنيفها حسب المطالب الواردة في البحث، وإبراز دور التناسب في اصطفاء كل أسلوب من أساليبها، ثم تحليلها تحليلًا بلاغيًا يميط اللثام عنها، ويظهر دور تعانق الألفاظ والجمل والحروف في الكشف عن دقة بلاغة هذه السورة، مع الإفادة من نفيس ما كتبه المفسرون في شروحهم.

وختامًا:

أسأل الله أن يتقبل هذا العمل، وأن يتجاوز عما فيه من سهو أوذلل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالميين.

د/ منى طه الداودي محمد
مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

التمهيـــد

أولًا: مفهوم علم المناسبة وأهميته.

المُناسَبَةُ: من النَّسَب، والنِّسْبَةُ: القَرابَة، والمناسبة: المُشاكَلَة[١]، فالمناسبة في اللغة: المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني؛ كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه[٢].

وعلم المناسبة اصطلاحًا عرفه صاحب البرهان في علوم القرآن بقوله: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني"[٣].

وعرفه البقاعي بقوله: "علم تُعرف منه علل الترتيب، وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب"[٤].

---

(١) القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)- ١/١٣٧- تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة- إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م.

(٢) الإتقان لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)- ٢/٢٨٩- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

(٣) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)-١/٣٦ - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م- دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (ت: ٨٨٥هـ) - ١/٥ - دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

أهمية علم المناسبات:

يتضمن هذا العلم إبرازًا لجانب من أسرار القرآن العظيم، وصورة من إعجازه، كما أن هذا العلم آية على نبوة النبي ـ ﷺ ـ؛ لأن الترتيب الحاصل بين سور القرآن وآياته ليس في مقدور بشر مهما كان عقله، فهذا العلم يساعد على فهم النص القرآني، ويبين معناه، ويعين على حفظه(١).

يقول صاحب نظم الدرر: "وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين: أحدهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب"(٢).

وفائدة علم التناسب تتمثل في " جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"(٣).

وقد كان كبار الصحابة يعرفون هذا العلم، بما في سليقتهم من أفانين العربية، وروائع أساليب التعبير البيانية، قال ابن مسعود ــ ﷺ ــ: إذا سأل أحدكم صاحبه كيف يقرأ آية كذا وكذا، فليسأله عما قبلها. يريد – والله أعلم: أن ما قبلها يدله على تحرير لفظها، بما تدعو إليه المناسبة"(٤).

وقال الأصمعي: "كنت أقرأ سورة المائدة ومعي أعرابي، فقرأت هذه الآية: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالًا مِنَ اللَّهِ) فقلت: (والله غفور رحيم) سهوًا، فقال الأعرابي: كلام مَن هذا؟ فقلت: كلام الله. قال أَعِد،

---

(١) ينظر علم المناسبات في السور والآيات للسيوطي صـ٣٨ وما بعدها. تحقيق/ محمد بن عمر بن سالم بازمول ـ المكتبة المكية – الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١/١١ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ١/٣٦ .

(٤) ينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، ١/١٥٣، ١٥٤، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧م.

فأعَدْتُ: (والله غفور رحيم)، ثم تنبهت فقلت: (والله عزيز حكيم). فقال: الآن أصبت، فقلت كيف عرفت؟ قال: يا هذا عزيز حكيم فأمر بالقطع فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع"[١] .

وآيات القرآن الكريم وسوره "إن كانت بعد تنزيلها قد جُمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع؛ كمثل بنيان كان قائمًا على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضًا فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصًا يشد بعضه بعضًا كهيئته أول مرة "[٢].

وعلم المناسبات علم عظيم الشأن، رفيع المكانة، وقد تحدث عن أهميته الإمام الرازي حيث قال: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"[٣].

وقال السيوطي في معترك الأقران: "علم المناسبة علم شريف قلَّ اعتناء المفسرين به لدقته"[٤].

وذكر البقاعي فضله في نظم الدرر بقوله: "وهو سر البلاغة؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك في معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير

---

(١) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير لأبي عبد الله فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)- ٣٥٧/١١ – دار إحياء التراث العربي – بيروت- الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ .

(٢) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم لمحمد بن عبد الله دراز (ت : ١٣٧٧هـ)- صـ١٨٨ –اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية – قدم له : أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني- دار القلم للنشر والتوزيع- الطبعة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

(٣) تفسير الرازي ١١٣/١٠ .

(٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)- ٤٣/١ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان–الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

كنسبة علم البيان من النحو"[1].

ثانيًا: فضل سورة الضحى وبيان المقصد منها

سورة الضحى "بموضوعها، وتعبيرها ومشاهدها، لمسة من حنان، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع، وتسكب الرّضا والأمل، إنها كلّها خالصة للنبي ـ ﷺ ـ كلها نجاء له من ربه وتسرية وتسلية، وترويح وطمأنة"[2].

وهي إحدى عشرة آية مكية بلا خلاف في ذلك[3]، ولم يرد عن النبي ـ ﷺ ـ حديث صحيح في فضل سورة الضحى[4]، إلا أن النبي – ﷺ– كان يقرأ في المغرب والعشاء: والليل إذا يغشى والضحى[5].

وقد نزلت سورة الضحى لبث الطمأنينة وإلقاء الثقة في قلب النبي ـ ﷺ ـ وتثبيت اليقين في صدره، فجاءت تخبره بمنزلته عند ربه، ومكانته لديه؛ ليقْوى على حمل أعباء الرسالة، ومشاقها، ثم إنها أتت تبشِّر رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٦/١ .

(٢) الموسوعة القرآنية، خصائص السور لجعفر شرف الدين ـ تحقيق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي– ١٣/١٢ – دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٢٠ هـ.

(٣) ينظر الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت: ٤٢٧هـ) ٢٢٢/١٠ – تحقيق: الإمام ابن عاشور، مراجعة وتدقيق أ/ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان– الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢ م. والتفسير البسيط لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، النيسابوري، (ت: ٤٦٨هـ)– ٩٧/٢٤ – الناشر: عمادة البحث العلمي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية– الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ.

(٤) ينظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)– ٥٢٥/١ – تحقيق: محمد علي النجار– المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(٥) شرح سنن ابن ماجه لمغلطاي بن قليج المصري الحنفي(ت: ٧٦٢هـ) – صـ١٤٠٤– المحقق: كامل عويضة– مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية.

بأنه تجاوز الاختبار، وتصدَّى الصعاب، بفضل تثبيت الله له، وإمداده بالعون.

وكأن سورة الضحى إيذان بأن الليل مهما طال لا بد وأن يتبعه النهار، وأن الظلام مهما اشتد لا بد وأن يعقبه النور، وأن الشر مهما غلب لا بد وأن يعقبه الخير، فلا يبقى شيء على حال؛ فدوام الحال من المحال.

والقصد من هذه السورة المباركة: الدلالة على أن أتقى الأتقياء في عين الرضا دائمًا، لا ينفك عنه في دنيا ولا في آخرة؛ لما تحلى به من صفات الكمال، بما لها من النور المعنوي، كالضحى بما له من النور الحسى، الذي هو أشرف ما في النهار(١).

والمتأمل في أسلوب سورة الضحى يراه سهلًا سلسًا، بلغ من الروعة والدقة والجمال ما يجعل معانيه تصل إلى القلب فور وصول الألفاظ إلى السمع؛ لأن سورة الضحى نزلت مؤانسة للنبي ـ ﷺ ـ ودعمًا وتثبيتًا له، فكان من المناسب أن يأتي نظم السورة الكريمة على ما أتى عليه؛ إذ اتحد موضوعها، وتتابعت آياتها تتابعًا تفريعيًا؛ ففي مطلعها دفاع من الله ـ ﷻ ـ عن الرسول ـ ﷺ ـ ضد من أشاع أن الله ودعه وقلاه؛ بإثبات عكس ذلك مع وعد له بمستقبل يرضيه، ثم تنتقل إلى تذكير النبي ـ ﷺ ـ بنعم الله عليه، وإكرامه له منذ أوائل نشأته حتى بعثته؛ ليطمئن إلى وعد الله له بما يرضيه مستقبلًا، ثم تنتقل إلى تكليف الله رسوله بأن يشكر نعم ربه عليه، فمعاني السورة ظاهرة التماسك والترابط لكل متدبر(٢).

---

(١) ينظر مصاعد النَّظر للإشراف على مقاصد السور ٢٠٢/٣ .

(٢) ينظر معارج التفكر ودقائق التدبر لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ٥٥٩/١ – دار القلم – دمشق – الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

المطلب الأول

أثر التناسب في اصطفاء أسلوب القسم

كان تناسب المعنى بين نهاية سورة الليل وبداية سورة الضحى سبيلًا إلى اصطفاء أسلوب القسم في بداية سورة الضحى، بالإضافة إلى أن انتهاء سورة الليل بالقسم في قوله: (ولسوف يرضى) وابتداء سورة الضحى بالقسم ـ أيضًا ـ يحقق نوعًا من التناسب بين السورتين.

ومقام الآية الكريمة هنا هو الداعي إلى إيثار أسلوب القسم؛ إذ هو مقام بث الطمأنينة والثقة في قلب الرسول ـ ﷺ ـ وتثبيته وتأييده بأنه على طريق الحق، وأن الله ما ودَّعه وما قلاه ـ كما زعم الزاعمون ـ ثم إن السورة الكريمة جاءت تبشره بأن عطاءات الله إياه لن تنقطع، بل هي ممتدة في الآخرة، وسيبلغ عطاء الله له منزلة الرضا، فقد روى البخاري في صحيحه عن الأَسْوَدِ بْنُ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدُبَ بْنَ سُفْيَانَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: "اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ – أَوْ ثَلاَثًا –"، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ – أَوْ ثَلاَثَةٍ – فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) [الضحى: ٢]"(١)

ومقام التثبيت والطمأنة يتطلب توكيد الكلام وتقريره؛ لذا بدأت سورة الضحى بالقَسَم بآيتين من آيات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾[الضحى: ١، ٢].

وقد أقسم الله ـ تعالى ـ على إكرامه لرسوله ـ ﷺ ـ وإنعامه عليه بآيتين عظيمتين من آياته هما: الضحى والليل إذا سجى، وهذا القسم تضمن تصديق النبي ـ ﷺ ـ؛ إذ هو قسم على النبوة، وقد تناسب القسم والمقْسَم عليه؛ لأنه إذا

---

(١) صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري(ت:٢٥٦هـ) – كتاب تفسير القرآن – باب ما ودعك ربك وما قلى، ١٧٢/٦ رقم ٤٩٥٠ – تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر – دار طوق النجاة – الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

كان المراد بالضحى: صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقي شعاعها[١]، والمراد بـ(الليل إذا سجى): أي: إذا أقبل بظلامه[٢]؛ فإن نور الضحى الذي يأتي بعد ظلام الليل يتطابق مع نور الوحي الذي أتى بعد احتباسه حتى قال المشركون: ودع محمدًا ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه[٣].

وإذا كان المراد بالضحى: النهار كُله بدليل مقابلته بالليل كله في قوله: (والليل إذا سجى)[٤] فإنه يتطابق أيضًا مع المعنى المقسَم عليه، وهو أن الله لم يترك رسوله في ليل أو نهار، بل تولى حفظه ورعايته على الدوام ليلًا ونهارًا، وما كان يتخلى عنه أو يودعه، فهذا القسم تأييد للنبي ـ ﷺ ـ وتصديقه في دعوته، وكأنه يقسم على رسالته وبعثته، جاء في نظم الدرر: "اعلم أن الله ـ ﷻ ـ ما أقسم بقسَم إلا مطابقاً معناه لمعانٍ في المقسَم من أجله بسراج منير يهدي به الله ـ تعالى ـ من يشاء، وإنما يعمي عن رؤية ذلك ظواهر إشخاص للمحسوسات، ويصم عن إسماع ندائها ضوضاء المشاهدات، ولولا ذلك لنودوا

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)- ٧٦٥/٤ – دار الكتاب العربي – بيروت- الطبعة الثالثة – ١٤٠٧هـ.

(٢) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٤٨٢/٢٤، والكشف والبيان عن تفسير القرآن = تفسير القرآن للثعلبي ٢٢٣/١٠ .

(٣) ينظر الإتقان في علوم القرآن ٥٩/٤ .

(٤) ينظر تفسير ابن عباس= تنوير المقباس من تفسير ابن عباس لعبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – (ت: ٦٨هـ) صـ٥١٣- جمعه: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)- دار الكتب العلمية – لبنان، ومعاني القرآن للفراء (ت: ٢٠٧هـ) ٢٧٣/٣- تحقيق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي- دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر-الطبعة الأولى، ولباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ)، ٤٣٧/٤ – تصحيح: محمد علي شاهين- دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

بها من مكان قريب"[١].

وقيل: إنما خص وقت الضحى بالقَسَم؛ لأنها الساعة التي كلم فيها موسى ـ عليه السلام ـ وأُلْقى فيها السحرة سجدًا، لقوله: (وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)"[٢]

وقد تناسبت بداية سورة الضحى مع نهاية سورة الليل، وبيان هذا التناسب ما يلي:

ذكر صاحب تناسق الدرر في تناسب السور وجه المناسبة بين السورتين قائلًا: " ولما كانت سورة الضحى نازلة في شأنه ـ ﷺ ـ افتتحت بالضحى الذي هو نور، ولما كانت سورة الليل سورة أبي بكر ـ يعني ما عدا قصة البخيل[٣] ـ وكانت سورة الضحى سورة محمد عقب بها، ولم يجعل بينهما واسطة؛ ليعلم ألا واسطة بين محمد وأبي بكر[٤].

وقد أجمع المفسرون على أن المقصود بقوله: (وسيجنبها الأتقى) هو أبو بكر الصديق[٥]، قال صاحب التحرير والتنوير في قوله تعالى: (وما لأحد عنده من نعمة تُجزى...): "اتفق أهل التأويل على أن أول مقصود بهذه الصلة

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٤٨/١٨

(٢) الكشاف للزمخشري – ٧٦٥/٤ .

(٣) الذي نزل في سورة الليل في أبي بكر قوله: " فأما من أعطى واتقى " إلى قوله: "فسنيسره لليسرى" وذكر ابن جرير الطبري أن أبا بكر الصدّيق كان يُعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بنيّ، أراك تعتق أناسا ضعفاء، فلو أنك أعتقت رجالا جَلْدا يقومون معك، ويمنعونك، ويدفعون عنك، فقال: أي أبت، إنما أريد "أظنه قال": ما عند الله. تفسير الطبري ٤٧١/٢٤ .

(٤) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي صـ١٣٨، تحقيق/ عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان – الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م

(٥) ينظر التفسير الكبير للرازي ٣١/ ١٨٨، والمحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ)– ٤٩٢/٥ –تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد– دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ. والتحرير والتنوير لابن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) – ٣٩١/٣٠ – الدار التونسية للنشر، تونس– ١٩٨٤م.

أبو بكر الصديق ـ ﷺ ـ لما أعتق بلالًا قال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا لِيَدٍ كانت لبلال عنده، وهو قول من بهتانهم ـ يعللون به أنفسهم كراهية لأن يكون أبو بكر فعل ذلك محبة للمسلمين ـ فأنزل الله تكذيبهم بقوله: (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) مرادا به بعض من شمله عموم الذي يؤتي ماله يتزكى"[(١)].

وتقديم الضحى في هذه السورة بينما قدَّم الليل في السورة السابقة؛ إما لأن لكلٍّ منهما أثرًا عظيمًا في صلاح العالم، ولليل فضيلة السبق لقوله تعالى: (وَجَعَلَ الظلمات والنور) [الأنعام: ١] ، وللنهار فضيلة النور، فقدم سبحانه هذا تارة وقدم هذا تارة، كالركوع والسجود ... وقيل: قدم الليل في سورة أبي بكر- ﷺ - لأن أبا بكر سبقه كفر، وقدم الضحى في سورة محمد – ﷺ- لأنه نــور محض، ولم يتقدمه ذنب[(٢)].

وهناك وجه آخر للمناسبة بينهما: هو تهيئة نفس النبي ـ ﷺ ـ وإعداده؛ ليقوى على حمل أعباء الرسالة، وحين يقع الظلم والبهتان على شخص قريب من القلب فكأنه وقع على النفس، وكأن ما حدث مع أبي بكر يبين أن طريق الدعوة محفوف بالابتلاءات، ومملوء بالمخاطر التي لا سبيل إلى النجاة منها إلا بالاستعانة بالله وتعليق القلب به، وصدق الالتجاء إليه.

فحين أذِن الله لنبيه بالبعثة جعل له من أصحابه من يفتديه بروحه في سبيل نشر دين الله، وإعلاء كلمة الحق، ومن أول من افتداه أبو بكر الصديق ـ ﷺ ـ الذي قال عنه رسول الله ـ ﷺ-: "مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَا نَفَعَنِي

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٩١ .

(٢) ينظر اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: ٧٧٥هـ) ٢٠/٣٨١، ٣٨٢ – تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض- دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان- الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م.

مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ"[1]، وكان أبو بكر الصديق أحب الناس إلى قلب النبي ـ ﷺ ـ وقد ظلمه المشركون بافترائهم عليه؛ فقد قيل لأبي بكر حين اشترى بلالًا وأعتقه أنه كان لبلال يد عند أبي بكر؛ لذا اشتراه وأعتقه، فجاء القرآن يرد عليهم بأنه ما فعل هذا إلا ابتغاء وجه الله، فقال تعالى: (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى)؛ لذا كان الوعد له من الله بأنه سوف يرضيه في قوله:(وَلَسَوْفَ يَرْضَى).

وهذا الموقف شبيه بما حدث مع النبي ـ ﷺ ـ حين قال المشركون: (إن رب محمد ودعه وقلاه)، فجاءت سورة الضحى لتنفي هذا الزعم، وتبث الطمأنينة في قلب المصطفى ـ ﷺ ـ بأن الله ما ودعه وما قلاه، وأنه سوف يعطيه فيرضى بهذا العطاء قال تعالى: (ولسوف يعطيك ربك فترضى).

ولعل هذا الموقف الذي حدث مع أبي بكر الصديق كان مقدمة وتهيئة لما سيحدث مع النبي ـ ﷺ ـ بشأن ما ادعاه المشركون ــ من أن الله ودع نبيه وقلاه ــ فقد حدث نفس الموقف مع أبي بكر ورسول الله، فالوعد بالرضا للنبي ـ ﷺ ــ ولصاحبه أبي بكر الصديق جاء عقب زعم وباطل ادعاه المشركون، فقد زعموا أن أبا بكر أعتق بلالًا لما له من فضل على أبي بكر، كما زعموا أن الله ودع نبيه وقلاه، وكأن مجيء سورة الضحى بعد سورة الليل إنما كان لمزيد من تثبيت النبي ـ ﷺ ـ وترسيخ اليقين بوعد الله في قلبه، حتى لا يكترث بزعم المشركين، فكان الوعد بالرضا إنما هو وعد من الله لنبيه ـ ﷺ ـ، وتثبيت له، ودحض مزاعم المشركين التي من شأنها زعزعة الدعوة، وتثبيط الدعاة، ثم

---

(١) سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي (ت: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض–أبواب المناقب– باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٦٠٩/٥ حديث رقم (٣٦٦١)– شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي– مصر–الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م.

هو وعد من الله لكل من ظُلِم بأن الله سوف يعطيه فيبلغ بهذا العطاء مبلغ الرضا.

ومن هنا يتضح أثر التناسب بين سورة الضحى وسورة الليل في إيثار أسلوب القسم في بداية الضحى، فالمقام هنا مقام بثٍ للطمأنينة والثقة في قلب الرسول ـ ﷺ ـ وهو مقام يتطلب تقرير الكلام وتوكيده، من أجل تثبيت النبي ـ ﷺ ـ وإيناسه، وإزالة وحشة قلبه، وإثلاج صدره بما يدعمه، ولسان حال الخطاب القرآني: لا تحزن، ولا تقلق؛ لأنك مؤيَّد من قِبَل رب البشر، وإنا ناصروك فاثبت؛ فإن ثباتك فيه ثبات أمة، وصمودك فيه صمود دعوة، فما تركك ربك وما قلاك، فتوكل على الله إنك على الحق المبين.

ثم إن هذا القَسَم قد أتى في أحلك الظروف، وأشد الأزمات؛ فإنَّ تأخُّر نزول الوحي على الرسول ـ ﷺ ـ ثم محاولة زعزعة قلبه ـ بقول من قال: إن ربك تركك وقلاك ـ في وقت هو بحاجة إلى ما يثبته، لحريٌ أن يسوق الخطاب القرآني مؤكدًا بالقَسَم.

كما أن في هذا القَسَم من تأييد المصطفى ـ ﷺ ـ ونصرته ما فيه، وفيه من خذلان أعدائه، وإهانتهم، وتشتيت شملهم، وتثبيط عزمهم ما يمَكِّن الطمأنينة من قلب الرسول ـ ﷺ ـ فيتحدى العالم أجمع؛ لأن من كان الله معه فما فقد شيئًا.

والقَسَم بـ(الضحى والليل إذا سجى) جاء مطابقًا لمقتضى الحال؛ لأن فيه تذكيرًا للنبي ـ ﷺ ـ بأنه بداية النور لهذه الأمة، والسبب في هدايتها، وإخراجها من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد.

وللقسم بالضحى، وبالليل إذا سجى، معنى روعي فيه المقسَم عليه؛ إذ ربما كان وقتا الضحى والليل إذا سجى في تلك المرحلة من مراحل رسالة الرسول محمد ـ ﷺ ـ هما الوقتان المختاران لنزول الوحي عليه، فالضحى يكون فيه الناس منصرفين إلى أعمالهم وأسواقهم، أما وقت الليل إذا سجى فهو وقت صفاء القلوب والنفوس والأفكار، فيخلو الحبيب بربه، دون أن يكون هناك ما

يشغله أو يعكر صفوه وخلوته[١].

وفي التناسب بين المقسَم به والمقسَم عليه من الروعة والجمال، والتآلف والانسجام، ما يضفي على المعنى مزيدًا من العظمة والجلال، فقد أقسم بنور الضحى الذي يأتي بعد ظلمة الليل على متابعة نور الوحي بعد احتباسه وفترته وإظلامه، فكما أن ضوء النهار يأتي بعد ظلمة الليل، فإن ضوء الوحى وهدايته يأتي بعد احتباس الوحي وفترته.

كما أن هذا القسم يشير بإيماء لطيف، وإيحاء شريف إلى رحمة الله وفضله على عباده، فكما أن الله لا يترك عباده في ظلمة الليل السرمدي بل يهديهم بضوء النهار إلى ما يصلح معاشهم وحياتهم، فإنه ـ تعالى ـ لا يتركهم في ظلمة الجهل بل يهديهم بنور الوحي وهدايته[٢].

فهذا القسَم يشير إلى عناية الله التي تحف نبيه من كل جانب، ورعايته له وحفظه إياه من كل من أراد به شرًا، فهو في جميع أحواله محاطٌ بالعناية الربانية، محفوظ بالرعاية الإلهية، وهذا ما يؤيده التناسب بين المقسَم به والمقسَم عليه: " فإن المقسَم عليه عدم تركه – ﷺ– ولا التخلي عنه، فجاء بالمقسَم به قسمي الزمن ليلا ونهارا، كأنه يقول له: ما قلاك ربك ولا تخلى عنك، لا في ضحى النهار حيث تنطلق لسعيك، ولا في ظلمة الليل حين تأوي إلى بيتك"[٣].

ومجيء الواو في أسلوب القَسَم تلفت لفتاً قوياً إلى أمور حسية لا تحتمل غرابة أو جدل، فقد جاءت لإيضاح أمور غيبية يعجز الحس عن إدراكها، وما يشير إليه القَسَم من طرف خفي من التعظيم إنما يقصد به إلى قوة اللفت؛

---

(١) ينظر معارج التفكر ودقائق التدبر لابن حبنكة الميداني ٥٦٢/١ .

(٢) ينظر التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) صـ٧٢، ٧٣ – تحقيق: محمد حامد الفقي– دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار عبد القادر الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ) ٤٤٥/٨، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م

فالمقسَم به في آيتي الضحى واقع حسي يشهده الناس في كل يوم، وهو تألق الضوء في ضحوة النهار، ثم فتور الليل إذا سجا وسكن دون أن يختل نظام الكون، بل دون أن يخطر على بال أحد أن السماء قد تخلت عن الأرض وأسلمتها إلى الظلمة والوحشة بعد تألق الضوء في ضحى النهار، فلا عجب في أن يجيء بعد أنس الوحي وتجلي نوره على المصطفى – ﷺ – فترة سكون يفتر فيها الوحي، على نحو ما نشهد من الليل الساجي يوافي بعد الضحى المتألق(١).

(١) ينظر التفسير البياني للقرآن الكريم، لعائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت: ١٤١٩هـ)– ١/٢٥، ٢٦ – دار المعارف – القاهرة – الطبعة السابعة.

المطلب الثاني

أثر التناسب في اصطفاء أسلوب النفي الواقع في جواب القسم

وكما كان التناسب بين ختام سورة الليل وبداية سورة الضحى سبيلًا إلى مجيء أسلوب القَسَم في بداية السورة، فإن التناسب بين القَسَم بالضحى والليل إذا سجى في الآيتين السابقتين وبين تثبيت النبي ـ ﷺ ـ وطمأنة قلبه بأن ربه ما ودَّعه وما قلاه سبيل إلى مجيء أسلوب النفي الواقع في جواب القَسَم في قوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾

قال ابن عباس: "وهذا بعد ما حبس الله عنه الوحي خمس عشرَة لَيْلَة لتَركه الِاسْتِثْنَاء فقال المشركون ودعه ربه وقلاه"[(١)]، وقال مقاتل: "لم ينزل على محمد- ﷺ- أربعين يومًا، ويقال: ثلاثة أيام"[(٢)].

وفي هذه الآية من بديع التناسب، وروعة التآلف بينها وبين الآيتين السابقتين ما فيه؛ لأن القَسَم بالضحى والليل إذا سجى في معرض التأكيد على نفي أن يكون الله ـ ﷻ ـ ودَّع نبيه وقلاه؛ لفترة الوحي وتأخر نزوله ـ يتناسب مع تلاصق الليل والنهار، واتْباع كل منهما الآخر، فكما لا يمكن توديع الليل للنهار بل الضحى ـ الذي هو أضوأ ما في النهار ـ للنهار فإن ربك لن يودعك، ولن يتخلى عنك [(٣)].

وإيثار النفي بـ(ما) دون غيرها من أدوات النفي يفيد التوكيد؛ بدليل وقوعها جوابًا للقسم، وجواب القسم فيه توكيد[(٤)]، كما أن بناء (ما) بالألف في

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٥١٣ .

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان لأبي الحسن مقاتل بن سليمان البلخي (ت: ١٥٠هـ)- ٤/٧٣١ – تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى – ١٤٢٣ هـ.

(٣) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٢٢/١٠٢ .

(٤) ينظر معاني النحو د/ فاضل صالح السامرائي ١/٢٥٥ – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن- الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

آخرها بما في "الألف من المد والاتساع في هواء الفم"[١] يقوِّي من هذا النفي ويؤكده، ويقيم المعنى ليدحض كل زعم، ويناهض كل قول على خلافه.

وإيثار صيغة التوديع في قوله: (ودَّعك) بما لها من دلالة على الترك الذي هو متعارف في تشييع المسافر وتركه[٢]، فيه مظنة المحبة، ومحل ترك الأثر المحبوب، فالرب الذي اختارك لتكون خاتم الأنبياء والمرسلين لم يكن ليودعك وقد اصطفاك، وصيغة الماضي أفادت تحقق نفي التوديع، كما "يظهر من لطيف الخطاب ورقيق الإيناس ومداخل اللطف، أن الموادعة تشعر بالوفاء والود، فأبرزت فيها كاف الخطاب، أي: لم تتأتَّ موادعتك وأنت الحبيب، والمصطفى المقرب"[٣].

ثم في تقديم المفعول به (كاف الخطاب) على المسند إليه (ربك) من المبادرة إلى تأكيد نفي الترك، وأنه ما كان منه ـ تعالى ـ توديع لمصطفاه على أي نحو من الأنحاء، كما أن فيه تعجيلًا بذكر ما يسر ويثلج الصدر، وقد عبر بالظاهر في موضع المضمر في قوله: (ما ودَّعك ربك) ولم يقل: (ما ودَّعتك) في خطاب الله ـ ﷻ ـ لنبيه ـ ﷺ ـ؛ لما في لفظ الرب من الدلالة على الإحسان والإكرام والتربية والتهيئة، فالله ـ ﷻ ـ أحسن إليه بالإيجاد أولًا، ثم بالاصطفاء وجعله أكمل خلقه ثانيًا، ثم إحسان تربيته ثالثًا[٤]، فهو يتقلب في نعم الله من قبل مجيئه إلى الدنيا؛ ولهذا أضيفت كاف الخطاب إلى المسند إليه؛ لتأكيد هذا المعنى، وإضافة الرب إلى ضمير خطابه ـ ﷺ ـ فيه من

---

(١) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)- ١٣١/١ – دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

(٢) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) – مادة ودع صـ٨٦٢ – تحقيق: صفوان عدنان الداودي- دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت – الطبعة الأولى – ١٤١٢ هـ .

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥٥٦/٨ .

(٤) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٠٢/٢٢ .

التشريف والتكريم ما فيه، ثم إن مجيء الآية القرآنية على هذا النحو فيه "مطابقة لما جاء في الإشاعة المفتراه ، إذ قال المشركون: إن رب محمد ودعه وقلاه"(١).

وقد يتوهم متوهم أن تأخر نزول الوحي سببه عدم محبة الله له فجاء قوله: (وما قلى)؛ للتأكيد على أن تأخر الوحي ليس بسبب بغض الله له؛ ولذا ناسب ذلك عدم تعدية الفعل (قلى) إلى ضمير خطابه ــ ﷺ ــ فلم يقل: (قلاك) على غرار قوله: (ودعك)؛ إيجازًا يشهد بتأييد الله ـ ﷻ ـ لرسوله ـ ﷺ ـ ويبطل كل زعم بأن الله أبغض حبيبه؛ مبادرة إلى إثبات نفي البغض، وقطع ظن كل ظان، وبتر توهم كل متوهم.

وجاء تكرار النفي بـ(ما) للتأكيد على نفي كون الله قلى نبيه بأي نوع من أنواع القلى والبغض؛ لهذا آثر لفظ القلى دون البُغْض الذي هو: نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه(٢)؛ لأن القلى معناه: شدّة البغض(٣).

كما أن في الحذف ــ أيضًا ــ مباعدة بين إلصاق لفظ القلى بكاف الخطاب؛ تنزيهًا للنبي ــ ﷺ ــ أن يكون الله ــ ﷻ ــ قلاه بأي لون من ألوان البغض، فهذا الحذف اقتضته حساسية معنوية مرهفة، بالغة الدقة في اللطف والإيناس، هي تحاشي خطابه ــ تعالى ــ لحبيبه المصطفى في مقام الإيناس بقوله: (ما قلاك)؛ لما في القلى من الطرد والإبعاد وشدة البغض، بخلاف لفظ التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بالفراق على كره، مع رجاء العودة واللقاء(٤).

وأخيرًا فإن حذف كاف الخطاب فيه تناسب فواصل آيات السورة الكريمة،

---

(١) معارج التفكر ودقائق التدبر ٥٧٩/١ .

(٢) المفردات في غريب القرآن صـ١٣٦.

(٣) المرجع نفسه صـ٦٨٣.

(٤) ينظر التفسير البياني للقرآن ٣٥/١ .

مما يكون له أكبر الأثر على السمع، فتنسجم الآية مع أختها، وتعلق بالأذهان، وتنادي على ما بعدها، فتبعث على تأكيد المعنى المراد ترسيخه في الأفهام، وإثباته في العقول؛ وذلك "لأن رنين الكلمات وجرسها، وتوافق إيقاعاتها لغة تغلغل في النفس والضمير، وتسمو بالروح إلى آفاق قدسية، فتأخذها نشوة يحسها من يرتل هذه الآيات"(١).

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني أ/د. محمد محمد أبو موسى صـ٣٥٩ – مكتبة وهبة–الطبعة السابعة.

المطلب الثالث

أثر التناسب في اصطفاء أسلوب التوكيد

بعد أن أقسم الله ـ ﷻ ـ بالضحى والليل إذا سجى على أنه ما ودَّع نبيه وما قلاه ناسب ذلك أن يأتي الوعد من الله بأن الفضل الذي حباه إياه في الدنيا هناك ما هو خير منه في الآخرة، وأن الله سيعطيه عطاء ترضى به نفسه، ويطيب به قلبه، **فقال تعالى:** ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ **[الضحى: ٤،٥].**

وقد روي عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عَنِ النَّبِيِّ ــ ﷺ ـ قَالَ: رَأَيْتُ مَا هُوَ مَفْتُوحٌ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي، كَفْرًا كَفْرًا[1] فَسَرَّنِي ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ: (وَالضُّحى، وَاللَّيْلِ إِذا سَجى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى) إِلَى قَوْلِهِ: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى)"[2].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين وعد الله ــ ﷻ ـ رسوله ــ ﷺ ــ بإسباغ فضله، وإتمام نعمه وكرمه عليه؛ ولذا ناسب ذلك أن يؤثر البيان القرآني التعبير بأساليب التوكيد المختلفة وأولها: لام الابتداء الداخلة على المبتدأ في قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، وهذه الآية الكريمة معطوفة على القسم بالضحى والليل إذا سجى، ومقصودها: ما كان من ربك توديع لك يا محمد ولا قلى، فقد اصطفيناك خليلًا، وارتضيناك رسولًا، وأسبغنا عليك النعم في الدنيا، وفوق كل هذا جعلنا لك في الآخرة ما هو أفضل من الدنيا، وقسمنا لك فيها ما هو خير مما طلعت عليه الشمس، فنِعَم ربك لا زالت تتوالى عليك تترى، وفضله عليك لا زال يحيطك أينما كنت، وحيثما حللت.

---

(١) أي: قرية قرية. لسان العرب لابن منظور الأنصاري (ت: ٧١١هـ)- كفر ١٥٠/٥ – دار صادر – بيروت– الطبعة الثالثة – ١٤١٤ هـ.

(٢) دلائل النبوة لأبي بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ٦١/٧– تحقيق: د/ عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨م.

ولام الابتداء لشدة توكيدها وتحقيقها ما تدخل عليه يُقَدِّر البعض قبلها قَسَمًا وتدل عليه اللام؛ لأنها مؤكدة محققة كتحقيق لام القسم، ولكن بالمعنى يستدل على القصد، والمعنى: أن خيرية الآخرة على الأولى أمر لا شبهة فيه، فالتأكيد والتحقيق في لام الابتداء هو إثبات خيرية الآخرة، وهي خيرية زائدة على ما أعطاه الله له في الدنيا، وطالما لم يدل على القسم دليل فهي لام الابتداء، والمعنى بينهما قريب(١).

والتناسب بين قوله: (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ) والآية السابقة: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ) قال عنه صاحب الكشاف: " لما كان في ضمن نفى التوديع والقلى: أنّ الله مواصلك بالوحي إليك، وأنك حبيب الله، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك، ولا نعمة أجل منه، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدّم على جميع أنبياء الله ورسله، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين، وإعلاء مراتبهم بشفاعته، وغير ذلك من الكرامات"(٢).

وقد كان هذا التناسب سبيلًا إلى إيثار طريق التوكيد بلام الابتداء واسمية الجملة، وسر بلاغة إيثار التوكيد في هذه الآية: هو اشتمالها على وعد من الله ـ ﷻ ـ لنبيه بأن العطاء الذي منحه إياه ليس قسرًا على العطاء الدنيوي، بل يمتد ليشمل الآخرة، وعطاء الآخرة أفضل من عطاء الدنيا، فكانت هذه الآية بشرى للنبي ـ ﷺ ـ بأن ما أعدَّه الله له في الآخرة أفضل مما أعطاه في الدنيا، وكان توكيد الجملة سبيلًا إلى بث مزيد من الثقة في قلب النبي ـ ﷺ ـ وبعث السكينة والطمأنينة في نفسه، ثم محو كل أثر من آثار زعم المشركين بأن الله ودَّع نبيه وقلاه، فالبيان القرآني جاء لإحياء روح اليقين بوعد

---

(١) ينظر اللامات تأليف/عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي (ت: ٣٣٧هـ) صـ٧٩، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر – دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤/٧٦٦.

الله في نفس مصطفاه، ودحض مزاعم المشركين التي كانت تحوم حول زعزعة قلب النبي ـ ﷺ ـ وذبذبة يقينه، وإيهامه بأنه ليس على الحق.

إن استعمال أسلوب القسم لنفي توديع الله رسوله، ثم إيثار طريق التوكيد لوعد الله باستمرار النعم والعطايا في الآخرة، وتفضيل عطاء الآخرة على الأولى كفيل بطمأنة قلب النبي ـ ﷺ ـ وتثبيته على طريق الحق الذي ارتضاه الله له، وحري ببعث روح اليقين بتأييد الله رسوله؛ كي يشد من أزره؛ ليقوى على حمل أعباء الرسالة، ويزيد من دعمه؛ لأن طريق الدعوة مليء بالابتلاءات، محفوف بالمشاق؛ لذا كان أسلوب التوكيد خير طريق لأداء هذه المعاني، وتثبيتها وتحقيقها في نفس النبي ـ ﷺ ـ ويؤيد هذا المعنى تعريف لفظتي: (الأولى، والآخرة) بلام الجنس، ففيه من التعميم ما يجعل معنى هذه الجملة في معنى التذييل الشامل لاستمرار الوحي وغير ذلك من الخير، والمعنى: أن كل آجل أمره هو خير من عاجله في هذه الدنيا وفي الأخرى[1].

كما كان للتناسب بين الآيتين دور في استعمال أسلوب التفضيل؛ فصيغة أفعل التفضيل (خير) بيَّنت أن الله قد حبا نبيه من النعم، وأعطاه من الفضل في الدنيا ما يتعاظم على النفس حصره، وما يتقاصر عن الذات وصفه، ليس هذا فحسب فعطاء الله لنبيه غير مقصور على الدنيا، بل شمل ما هو أفضل منها وهي الآخرة، وهذا المعنى مدلول عليه من خلال أفعل التفضيل الدال على الاشتراك في الوصف مع الزيادة في أحدهما على الآخر، فقد اشتركت الأولى والآخرة في الخيرية، وزادت الآخرة على الأولى في الفضل؛ لكونها دار خلود واستقرار، لا دار فناء ورحيل.

ومن جهة أخرى كان للتناسب دور في إيثار التوكيد بأسلوب القصر من خلال إضافة لام الملك إلى كاف الخطاب في قوله: (لك) وهذا يشعر بمدى الخير الذي يناله المصطفى ـ ﷺ ـ في الآخرة، وكأن الخير في الآخرة

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٣٠/٣٩٧ .

بما فيها من نعيم وثواب أصبح له وحده على سبيل المبالغة، وهو من القصر الإضافي؛ لأن الخيرية التي في الآخرة ليست مقصورة عليه وحده ـ ﷺ ـ فقد ثبتت الخيرية للمتقين، قال تعالى: (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) وهذا الخير " شامل لكل ما له تعلق بنفس النبي ـ ﷺ ـ في ذاته وفي دينه وفي أمته، فهذا وعد من الله بأن ينشر دين الإسلام وأن يمَكِّن أمته من الخيرات التي يأملها النبي ـ ﷺ ـ لهم"(١).

والمقصود بـ(الأولى): "الدنيا الفانية التي لا سرور فيها خالص، كما أن النهار الذي هو بعد الليل خير منه وأشرف ولا سيما الضحى منه"(٢)، وإيثار التعبير بلفظة (الأولى) بدلًا من (الدنيا) يظهر سرعة فناء الدنيا وزوالها، وأنها سرعان ما تنقضي، وسرعان ما تزول أحزانها وآلامها، كما أن لكل بداية نهاية، فكل ألم يعقبه فرح، وكل ضيق يعقبه فرج، وما أسعد من كانت أُخراه أفضل من دنياه؟!

وكان للتناسب دوره في إيثار التوكيد بأسلوب الطباق بين: (الأولى والآخرة)، وهذا الطباق يقرر المعنى ويؤكده؛ إذ التعبير بـ(الأولى) في معرض امتنان الله ـ تعالى ـ وتفضله على نبيه ـ ﷺ ـ وإكرامه؛ لبث الثقة في قلبه، وإلقاء الطمأنينة والهدوء النفسي على صدره بأن عطاءات الله ـ تعالى ـ له لا تنقطع، ورحمات ربه لا تزال تحفه أينما كان، وأنها ليست مقتصرة على الدنيا فحسب، بل إنها تمتد لتشمل الآخرة دار البقاء.

هذا بالإضافة إلى توافق وقع فواصل الآيات على السمع؛ فإن لفظة (الأولى) تحقق من التوافق ما لا تحققه لفظة (الدنيا).

ولما كان قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ وعدًا من الله ـ ﷻ ـ لنبيه ـ ﷺ ـ بالخير في الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة أفضل من خير

(١) المرجع السابق ٣٩٧/٣٠ .

(٢) نظم الدرر ١٠٧/٢٢

الدنيا، ناسب ذلك أن يأتي الوعد من الله له بأنه سوف يعطيه ويسبغ عليه فضله فيرضى في قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ ووجه التناسب بين هذه الآية والآية السابقة: أنه " لما ذكر سبحانه الدنيا والآخرة، ذكر ما يشملهما مما زاده من فضله"(١).

وقد جاءت هذه الآية الكريمة معطوفة على جواب القَسَم السابق، وهي توحي بمقام النبي ـ ﷺ ـ ومنزلته عند ربه، وبيان فضله في العالمين، وما أعدَّه الله له من الرضا في الدنيا وفي جنات النعيم، فهي تنبئ عن إكرام الله نبيه، وإعطائه إياه من الخير ما ترضى به نفسه، ويَسْعَد به قلبه، ولما كان المقام مقام طمأنة قلبه ـ ﷺ ـ وتثبيته، وترسيخه على طريق الحق الذي بدأه، وإبطال أثر كل زعزعة من شأنها أن تثبط من عزيمته، أو تُضْعِف من قواه، ناسب ذلك أن تكثر المؤكدات في الآية الكريمة وتتنوع، فجاءت اللام ـ سواء كانت لام الابتداء أو القَسَم كما سيتضح من البحث إن شاء الله ـ تعالى ـ و(سوف) التي تستعمل في التأكيد لما يُستقبل، والمضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار في العطاء، وبيان أنه عطاء لا ينقطع، ولا يزول، ولا يتبدد؛ لأنه عطاء يبلغ بالنفس مرتبة الرضا، ويثلج الصدر حتى الانشراح.

وقد ذهب الزمخشري في كشافه، وتبعه الرازي في التفسير الكبير، والبيضاوي في أنوار التنزيل إلى أن اللام في قوله: (ولسوف يعطيك) هي لام الابتداء، جاءت لتوكيد الكلام، وحجتهم في ذلك: أن هذه اللام إما أن تكون لام الابتداء أو لام القَسَم، ولام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد، وقد خلا الفعل منها، فلا بد أن تكون هذه اللام هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، ولام الابتداء لا تدخل إلا على المبتدأ فوجب تقدير

(١) نظم الدرر ١٠٨/٢٢.

مبتدأ في الكلام هو (ولأنت سوف يعطيك ربك)[1].

وقيل: إن اللام هي لام القسم، وأما قاعدة مصاحبة لام القسم لنون التوكيد فقد استثنى النحاة منها صورتين: الأولى: أن يفصل بين اللام وبين الفعل حرف التنفيس كما في هذه الآية، والصورة الثانية: الفصل بين لام القسم والفعل بمعمول الفعل كما في قوله تعالى: (إلى الله تحشرون) ودليل هذا ما نُقل عن أبي على الفارسي: "ليسَتْ هذه اللامُ هي التي في قولك: (إنَّ زيداً لَقائمٌ)، بل هي التي في قولِك: (لأَقومَنَّ) ونابَتْ (سوفَ) عن إحدى نونَيْ التوكيدِ، فكأنه قال: ولَيُعْطِيَنَّك"[2].

وذكر صاحب الدر المصون أن هذه اللام هي لام القسم وكذا اللام في (وللآخرة) بقوله: "الظاهرُ في هذه اللامِ ـ يقصد لام (وللآخرة) ـ أنَّها جوابُ القسم، وكذلك في (ولَسَوْفَ) أَقْسم تعالى على أربعةِ أشياءَ: اثنان منفيَّان وهما توديعُه وقِلاه، واثنان مُثْبَتان مؤكَّدان، وهما كونُ الآخرةِ خيراً له من الدنيا، وأنه سوف يُعْطيه ما يُرضيه"[3].

والذي يضعِّف قَول الزمخشري ومن تبعه أَن فيه تكلفًا لأمرين: "تقدير محذوف، وخلع اللَّام عَن معنى الحَال؛ لِئَلَّا يجْتَمع دَلِيلا الحال والاستقبال، وَقد صرح بذلك فِي تفسِير (لسوف أخرج حَيا)، وَنَظره بخلع اللَّام عَن التَّعْرِيف

---

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ٧٦٧/٤ ، والتفسير الكبير للرازي ١٩٥/٣١ ، وتفسير البيضاوي= أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) – ٣١٩/٥– تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي– دار إحياء التراث العربي – بيروت– الطبعة الأولى – ١٤١٨هـ.

(٢) ينظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لأحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ) – ٣٨/١١ – تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط دار القلم، دمشق، وتفسير أبي السعود لأبي السعود العمادي (ت: ٩٨٢هـ)– ١٧٠/٩ – دار إحياء التراث العربي– بيروت.

(٣) الدر المصون ٣٧/١١ .

وإخلاصها للتعويض فِي (يالله)، وقَوله: إن لَام القسم مع المضارع لا تفارق النون ممنوع، بل تارة تجب اللَّام وتمتنع النون، وذلك مع التَّنْفِيس كالآية، ومع تقديم المعمول بَين اللَّام والفعل نحو: (وَلَئِن متم أَو قتلتم لإلى الله تحشرون)، ومَع كون الفعل للْحَال نحو: (لَا أقسم)، وَإِنَّمَا قدر البصريون هنا مبْتَدأ؛ لأَنهم لَا يجيزون لمن قصد الحال أَن يقسم إِلَّا على الجملة الاسمية"[1].

والذي يرجحه البحث هو أن اللام في قوله: (وللآخرة خير لك من الأولى) هي لام الابتداء التي جاءت لتوكيد مضمون الجملة؛ لأن الآية وعد للنبي ـ ﷺ ـ بالخير الذي ينتظره في الآخرة، وأنه أفضل من الخير الذي سيناله في الدنيا، ولما كانت النفس البشرية تميل بطبعها إلى الخير العاجل لم يكن الأمر بحاجة إلى قوة التوكيد بالقسم؛ فالنبي ـ ﷺ ـ يكفيه هذا الوعد، وهو على يقين منه، ولكنه يحتاج إلى ما يثبت قلبه من الخير العاجل في الدنيا، ويسانده لمجابهة محاولات المشركين المغرضة لزعزعة إيمانه، ويقينه بربه، ولما كان الوعد فيها متعلقًا بالخير الذي سيناله في الآخرة، وتعلق الوعد في الآية التالية بما يشمل خيري الدنيا والآخرة ناسب ذلك مجيء القسم في قوله: (ولسوف يعطيك ربك فترضى)؛ لما تشيعه من زيادة طمأنة النبي ـ ﷺ ـ وتثبيته، والتهدئة من روعه، وإذهاب الضيق من صدره، وإثبات العطاء الشامل له، فإذا كان الوعد ممن يقول للشيء كن فيكون فكيف يصل اليقين مداه في قلب مصطفاه؟! وإلى أي مدى تحلق روحه الشريفة يقينًا وفرحًا واستبشارًا بعطاء الله إياه؟!

ومما يؤيد كون اللام في (ولسوف يعطيك ربك فترضى) للقسم هو أن افتراض كونها للابتداء يحتاج إلى تقدير محذوف في الكلام ـ بخلاف الآية السابقة فإنها لا تحتاج إلى تقدير محذوف ـ وقد استقام المعنى بدون تقدير،

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ت: ٧٦١هـ)- صـ٣٠٣ - تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، الطبعة السادسة ١٩٨٥م.

فلا حاجة إلى زيادة ما استغنى عنه الكلام، في الوقت الذي استثنى النحاة قاعدة بجواز عدم مصاحبة النون للام القسم إذا فصل بين اللام وبين الفعل حرف تنفيس أو معمول الفعل، وعليه فترجيح كون اللام للقسم هو ما تميل إليه النفس والله أعلم.

ومن جهة أخرى فإن اقتران حرف التنفيس (سوف) الذي يفيد البعد والتراخي فيما لم يكن بعد[١] يستدعي مزيدًا من تأكيد الكلام، ولا شك أن التأكيد في لام القسم أقوى من التأكيد بلام الابتداء[٢]، وهذا ما تطلبه المقام؛ لكون الوعد من الله بالعطاء لنبيه مما يزيد من تثبيته، وترسيخ اليقين بوعد الله في قلبه.

كما يؤيد قوة التأكيد المستفاد من لام القسم من ناحية أخرى استعمال البيان القرآني لحرف التنفيس (سوف) دون (السين)؛ لأن فيها " دلالة على زيادة تنفيس، فهي أكثر تنفيسًا من السين"[٣]. كما أن زيادة مبناها دلالة على زيادة معناها، والمقام هنا يقتضي مزيدًا من الإطناب الذي يتطلبه موطن التثبيت، وبث الثقة والطمأنينة في قلب النبي ـ ﷺ ـ، بخلاف مقام الإيجاز الذي تتطلبه السين[٤].

ثم إن في (سوف) رائحة الوعد؛ لأن (سوف) إطماع فيما يكون، وقيل السوف: الشم لرائحة ما ليس بحاضر، وقد وجدت رائحته، فهي تدل على

---

(١) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوي (ت: ١٠٩٤هـ) صـ٥٠٠- تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري- مؤسسة الرسالة – بيروت.

(٢) لأن دخول لام الابتداء بمنزلة تكرير الجملة مرة واحدة. ينظر الكليات صـ٢٦٩ .

(٣) المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) صـ٤٣٥ – تحقيق: د/ علي بو ملحم- مكتبة الهلال – بيروت- الطبعة الأولى، ١٩٩٣م . وحرف التنفيس هو " حرف توسيع؛ وذلك أنها تقلب المضارع من الزمن الضيق وهو الحال إلى الزمن الواسع وهو الاستقبال" مغني اللبيب عن كتب الأعاريب صـ١٨٤.

(٤) ينظر معاني النحو ٢٧/٤، ٢٩/٤.

أن ما بعدها ليس بحاضر، وقد علم وقوعه وانتظر إيابه[1].

وإيثار صيغة المضارع في المسند (يعطيك)؛ لإفادة أن هذا العطاء مستمر لا ينقطع، وأنه ليس مقصورًا على الدنيا بل يمتد إلى الآخرة، ويؤيد شمول هذا العطاء لخيري الدنيا والآخرة حذف المفعول الثاني للمسند (يعطيك)؛ ليشمل كل لون من ألوان عطاء الله لنبيه، وكل نوع من أنواع الإكرام، ثم لتذهب النفس في تخيل هذا العطاء كل مذهب؛ مما يؤنس النفس، ويثبتها، ويرسخها على طريق الحق؛ لأن العطاء في الدنيا محفوف بحفظ الله ورعايته، والعطاء في الآخرة فمما يعجز العقل البشري عن تخيل كنهه؛ لأنه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وإيثار لفظ الرب في المسند إليه (ربك) وتكراره دون لفظ الجلالة العَلَم (الله)؛ يزيد من بث روح الطمأنينة والثقة في قلب النبي ـ ﷺ ـ وينثر جوًا من اليقين بوعد الله والثبات على طريقه؛ لما يؤذن به لفظ (رب) من الرأفة واللطف والرحمة والعناية والرعاية والحماية التي أحاطه الله بها، بالإضافة إلى ما تشيعه إضافته إلى ضمير المخاطب من التشريف والتكريم لنبي الله الكريم؛ تنبيهًا على مزيد رعايته والعناية به.

وإنما جاءت فاء التعقيب في قوله: (فترضى)؛ ليفيد بها أن عطاء الله لنبيه ـ ﷺ ـ سيبلغ به منزلة الرضا عقب هذا العطاء على الفور، دون أن يكون هناك مهلة بين العطاء وبين الرضا به، مسارعة إلى بث شتى سُبُل اليقين في قلب نبيه الكريم، ومبادرة إلى غرس ألوان الطمأنينة في نفسه؛ ليكون على ثقة بأن الله معه ومؤيده في كل مسير، وناصر له حتى نهاية السبيل؛ ولذا فمجيء فاء التعقيب؛ " لإفادة كون العطاء عاجل النفع بحيث يحصل به رضى المعطَى عند العطاء فلا يترقب أن يحصل نفعه بعد تربص"[2].

---

(١) ينظر الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري(ت: نحو ٣٩٥هـ) صـ٣١٠ –تحقيق: محمد إبراهيم سليم– دار العلم والثقافة، القاهرة – مصر. وبدائع الفوائد ٩١/١ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٩٨/٣٠

المطلب الرابع

أثر التناسب في اصطفاء أسلوب الاستفهام

بعد أن وعد الله نبيه ــ ﷺ ــ أنه سوف يعطيه فيبلغ به العطاء منزلة الرضا، ناسب ذلك أن يأتي البيان القرآني بما يدل على أن هذا العطاء آتٍ لا محالة، ولسان حال البيان القرآني: وعدناك بالعطاء فيما يُستَقبل، وهذا ليس بحديث عهد علينا فقد سبق إنعامنا، وأُغدِق عليك فضلنا، فكنت محاطًا بالعناية الربانية، ومحفوفًا بالرعاية الإلهية من قبل مجيئك إلى الدنيا وحتى الآن؛ ولذا ناسب ذلك أن يأتي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾ [الضحى ٦: ٨].

وهذه الآيات الكريمة تقوم مقام البرهان والدليل على تأكيد الوعد السابق؛ لأنها تذكير للنبي ــ ﷺ ــ بالنعم التي أنعم الله بها عليه من قبل مجيئه إلى الدنيا إلى وقت نزول الآية؛ "ليستشهد بالخاص الموجود على المترقب الموعود؛ فيزداد قلبه الشريف وصدره الرحيب طمأنينةً وسرورًا وانشراحًا وحبورًا"(١).

فالمقام مقام تثبيت وطمأنة وبث لليقين في قلب النبي ــ ﷺ ــ، وهو ما يستدعي ذكر الدلائل والبراهين التي من شأنها أن تزيد من الثقة بتأييد الله له، ونصره ومؤازرته إياه، وهذا من شأنه تثبيته على طريق الدعوة؛ ليكون هو الداعم لمن حوله، والمؤيد لهم في هذا الطريق الشاق.

وقد كان التناسب بين قوله تعالى: **(ألم يجدك يتيمًا فآوى، ووجدك ضآلًا فهدى، ووجدك عائلًا فأغنى)** وبين الآية السابقة: **(ولسوف يعطيك ربك فترضى)** هو الداعي إلى مجيء أسلوب الاستفهام، ولو جاء بطريق الخبر

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)- ٣٨٠/١٥ - تحقيق: علي عبد الباري عطية- دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

لما كان في قوة وبلاغة الاستفهام؛ لأنه حينئذ يكون مجرد إخبار من الخالق ـ ﷻ ـ لنبيه بفضله عليه، ونعمه التي أسبغها عليه، وحفظه له، ورعايته من قبل ولادته إلى هذا الحين، ولكن البيان القرآني سلك طريق الاستفهام؛ ليكون ذلك أدعى إلى تثبيت قلب النبي ـ ﷺ ـ وزيادة الثقة بوعد ربه له، وأنه ناصره، ومؤيده، ولن يتخلى عنه أبدًا؛ ليزداد ثباتًا ويقينًا، ويفيض قلبه طمأنينة؛ فهو مقبل على أمر سيعاديه العالم بسببه، ولا يَثبت معه إلا القليل، وهو الدعوة إلى توحيد الله ـ ﷻ ـ؛ لهذا كان التناسب بين الآيات داعيًا إلى الاستفهام.

والاستفهام في الآيات الكريمة غرضه التحقيق والإثبات؛ لأن المراد به تذكير النبي ـ ﷺ ـ بفضل الله عليه، وكرمه، وعطفه، ولطفه به، وعنايته، ورعايته، وحفظه له، وهذا من شأنه أن يثبِّت قلب النبي ـ ﷺ ـ ويطمئنه، ويزيد يقينه بأن ربه ناصره ومؤيده، ولن يتخلى عنه ـ كما زعم المشركون بأن الله ودعه وقلاه ـ وفي هذا مزيد من بث الثقة، وطمأنة القلب، وإذهاب كل أثر لأي أمر يكون من شأنه زعزعة إيمان النبي ـ ﷺ ـ ويقينه بتأييد الله له؛ فطمأنة القلب سبيل إلى الصمود أمام التحديات، وطريق إلى كسر كل الصعوبات.

ومن جانب آخر فإن البيان القرآني حين جاء بطريق الاستفهام فإنه يلفت المصطفى ـ ﷺ ـ بوجه الخصوص، والأمة الإسلامية كلها بوجه العموم إلى أمر هو من الإيمان بمكان، وسبب في ارتقاء المؤمن أعلى درجات الإيمان، والفوز برضا الرحمن، ألا وهو حسن الظن بالخالق، واليقين بأنه لا يأتي إلا بالخير وبما فيه الصلاح والفلاح، وذلك أن الله "عدّد عليه نعمه وأياديه، وأنه لم يخله منها من أول تربيته وابتداء نشئه؛ ترشيحًا لما أراد به؛ ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه، لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة، ولا يضيق صدره ولا يقل صبره"(١).

---

(١) الكشاف ٤/٧٦٧ .

ثم إن الاستفهام يوحي من طرف خفي إلى ما يقع في قلوب المشركين من خوف وفزع تجاه النبي ـ ﷺ؛ إذ كان فيه تذكير لهم بأن الله لم يترك نبيه منذ نشأته، بل حفظه ورعاه قبل بعثته، فإذا كان هذا شأنه معه قبل البعثة فكيف يكون الحال بعد البعثة؟! وكأن هذا الاستفهام إنذار للمشركين كي يرتدعوا عما يقومون به تجاه النبي ـ ﷺ ـ فإما أن يذعنوا ويدخلوا في دين الله، وإما أن يكفوا ألسنتهم وأيديهم عن رسول الله، وعلى كل حال فإن الاستفهام كان الطريق الأمثل للتعبير عن هذه المعاني التي لا يقوم بها أسلوب آخر.

وأَلَمْ يَجِدْكَ: من الوجود الذي بمعنى العلم، والمراد: ألم يعلمك، والمنصوبان مفعولا وجد، والمعنى: ألم تكن يتيما، وذلك أنّ أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر وماتت أمّه وهو ابن ثماني سنين، فكفله عمه أبو طالب، وعطف عليه فأحسن تربيته(١).

والهمزة في (ألم يجدك) "لإنكارِ النفي وتقريرِ المنفي على أبلغ وَجْهٍ كأنَّه قيلَ قد وجدكَ إلخ"(٢).

قال مقاتل: " ضمك إلى عمك، وكفاك المؤنة ... "(٣)

وقد وُلد المصطفى ـ ﷺ ـ يتيمًا فحُرِم من عطف الأب وحنانه، ومن السند والظهر الذي يعجز أن يقوم أحد مقامه، وهو إذ ذاك يضرب المثل لكل من نشأ يتيمًا بأن هذا ليس عيبًا، وأنه على الرغم من هذا إلا أنه قاد العالم، وكان سببًا في هداية البشرية، وحين ذاق مرارة اليتم، وألم الفقد تراه يفيض عطفًا وحنانًا على من حوله، ويشع قلبه نورًا وصفاءً، فصار قدوة لهم في التفاني والعطاء، وعمت رحمته الصغير والكبير ولا غرو في هذا فما أرسله

---

(١) ينظر المرجع نفسه ٧٦٧/٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ١٧٠/٩ .

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ٧٣٢/٤ ، وزاد المسير في علم التفسير لجمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)- ٤٥٨/٤ – تحقيق: عبد الرزاق المهدي- دار الكتاب العربي – بيروت- الطبعة الأولى – ١٤٢٢ هـ.

ربه إلا رحمة للعالمين.

والإيواء مصدر (أوى): الهمزة والواو والياء أصلان: أحدهما التجمع، والثاني الإشفاق، يقال: ائو إلى فلان أي: انضم إليه، وأوِ لفلان أي: ارحمه، وأوى إليه: رق ورثى له(١).

والمعنى: "أنشأك على كمال الإدراك والاستقامة، وكنت على تربية كاملة مع أن شأن الأيتام أن ينشأوا على نقائص؛ لأنهم لا يجدون من يعنى بتهذيبهم وتعهد أحوالهم الخلقية. وفي الحديث (أدبني ربي فأحسن تأديبي) فكان تكوين نفسه الزكية على الكمال خيرا من تربية الأبوين"(٢).

وليتأمل أهل الإنصاف رعاية الله لرسوله ـ ﷺ ـ "فلقد كان اليتم وحده مدعاة إلى المضيعة وفساد الخلق؛ لقلة من يحفل باليتيم ويحرص عليه، وكان في خلق أهل مكة وعاداتهم ما فيه الكفاية في إضلاله لو أنه سار سيرتهم، لكن عناية الله كانت ترعاه، وتمنعه السير على نهجهم، فكان الوفيّ الذي لا يمين، والأمين الذي لا يخون، والصّادق الذي لا يكذب، والطاهر الذي لم يدنّس برجس الجاهلية"(٣).

وقد آثر البيان القرآني العطف بالفاء في قوله: (ألم يجدك يتيمًا فآوى) حيث تبدو العناية الربانية، والرعاية الإلهية التي أحاطت بالنبي ـ ﷺ ـ في صغره، فقد نشأ يتيمًا من دون أب، وسرعان ما فقد الأم، ولكن عناية الله كانت تحفه، ورعايته تحيط به، فلم يتركه ربه وحيدًا بل آواه، وجاء العطف بالفاء ليدل على أن حفظ الله لرسوله كان فور حصول اليتم، دون أن يكون هناك

---

(١) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ) باب الهمزة والواو وما بعدهما في الثلاثي-١٥١/١ -تحقيق: عبد السلام محمد هارون- دار الفكر- ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، ولسان العرب – مادة أوا - ٥١/١٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٩٩/٣٠ .

(٣) تفسير المراغي لأحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)-١٨٥/٣٠- مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ، ١٩٤٦م.

مهلة بين حصول اليتم والإيواء، وأن ربه لم يتركه ليذوق مرارة اليتم، ويعاني ألم الوحدة، بل سرعان ما آواه إليه، وكأن هذا الإيواء كان قرينًا لحصول اليتم، وفي هذا من بث الطمأنينة والسكينة في قلب النبي ـ ﷺ ـ ما فيه، ومن إظهار شتى سبل التأييد والعون والنصر من الله لنبيه ما فيه، ثم إن في العطف بالفاء مسارعة في محو أثر كل تشكيك أو زعزعة حاول المشركون بثها في قلب النبي ـ ﷺ ـ ليصدوه عن دعوته، ومبادرة إلى ترسيخ كل ما من شأنه أن يقوي العزيمة، ويدفع الإرادة إلى اليقين بوعد الله وبنصره وتأييده.

وكذا جاء العطف بالفاء في قوله: (ووجدك ضآلًا فهدى، ووجدك عآئلًا فأغنى)؛ لبث مزيد من الثقة والطمأنينة ـ أيضًا ـ في قلب النبي ـ ﷺ ـ من أجل غرس شتى طرق التثبيت والتأييد على نحو يمنح النبي ـ ﷺ ـ اليقين الذي يجابه به دعاة الشرك، وأئمة الضلال.

وقد اختلفوا في المراد بـ (ضآلًا) في قوله تعالى: **(وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى)** على ستة أقوال: أحدها: ضالاً عن معالم النبوة، وأحكام الشريعة، فهداك إليها. والثاني: أنه ضَلَّ وهو صبي صغير في شعاب مكة، فردَّه الله إلى جده عبد المطلب. والثالث: أنه لما خرج مع ميسرة غلام خديجة أخذ إبليس بزمام ناقته، فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى الحبشة، ورده إلى القافلة، فمنَّ الله عليه بذلك. والرابع: أن المعنى: ووجدك في قوم ضُلاَّل، فهداك للتوحيد والنبوة. والخامس: ووجدك نِسْيَاً، فهداك إلى الذِّكْر. ومثله: (أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى). والسادس: ووجدك خاملاً لا تُذْكَر ولا تُعْرَف، فهدى الناس إليك حتى عرفوك[1].

والصواب: "أنه ضلال من توقّف لا يدري كما قال ـ ﷻ ـ: (ما كُنْتَ

(١) ينظر الكشاف ٧٦٨/٤ ، وزاد المسير ٤٥٨/٤ ، والتسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم، محمد بن أحمد الغرناطي (ت: ٧٤١هـ) ٤٩١/٢ – تحقيق: د/ عبد الله الخالدي– شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت–الطبعة الأولى – ١٤١٦ هـ.

تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ) [الشورى: ٥٢]"[١]. ومعناه: "أنه لم يكن يعرف تفصيل الشريعة وفروعها حتى بعثه الله، ولكنه ما كفر بالله ولا أشرك به؛ لأنه كان معصوما من ذلك قبل النبوة وبعدها"[٢].

والمراد بـ (أغنى) في قوله: (ووجدك عائلًا فأغنى) ثلاثة أقوال:

أحدها: أغناك بالمال بعد الفقر، وكذا كان حَال رسول الله – ﷺ– كان فقيرًا لا مال له، حتى فتح الله عليه الفتوح، وأعطاه المغانم.

والثاني: أغناك بخديجة عن مَال أبي طالب ومسكنه.

والثالث: أرضاك وقنعك[٣].

وبين طيات أسلوب الاستفهام يسلك البيان القرآني مسلك الحذف حين طوى ذكر المفعول في قوله: (فآوى، وهدى، وأغنى) وهو ضمير المخاطب العائد إلى النبي ــ ﷺ ــ والسر في هذا الحذف ــ بالإضافة إلى ما ذهب إليه الفراء في معاني القرآن أن هذا لمشاكلة رءوس الآيات[٤] ــ هو العلم بالمحذوف واتضاح المعنى.

كما أن في الحذف من لطف الله ورحمته بنبيه، والتخفيف من الإثقال على قلبه ما فيه؛ إذ لما كان في هذه الآيات تذكير المصطفى ـ ﷺ ـ بنعم ربه عليه، وإسباغ فضله عليه من قبل البعثة وحتى نزول الآيات جاء الحذف ليؤدي هذا الغرض الكريم الذي يوحي من جانب إلى ملاطفة البيان القرآني في أسلوبه الذي يسلكه في تثبيت النبي ـ ﷺ ـ على طريق الدعوة.

كما يشير من جانب آخر إلى مكانة النبي ـ ﷺ ـ ومنزلته عند الله ـ ﷻ ـ وأنه لن يترك مصطفاه أبدًا، بل سيظل مؤيدًا له، فهو الرحمة المهداة الذي

---

(١) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية ٤٩٤/٥ .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤٩١/٢ .

(٣) ينظر الكشاف ٧٦٨/٤، والتفسير البسيط للواحدي ١١٣/٢٤.

(٤) ينظر معاني القرآن للفراء ٢٧٤/٣ .

أرسله الله لهداية البشرية.

ومما جاء يؤكد تأييد الله ـ ﷻ ـ لنبيه ـ ﷺ ـ وإمداده بالعون من لدنه، وأنه ما ودَّعه وما قلاه، بل سيظل ناصره ومؤيده ما جاء من طباق في الآيات الكريمة بين قوله: (ضآلًا، فهدى) وقوله: (عآئلًا، فأغنى) وهذا الطباق يؤكد المعنى ويقويه ويمكنه في النفس؛ لأنه يوحي من طرف خفي بشدة عناية الله لرسوله وحفظه ورعايته إياه؛ إذ لم يتركه في وقت هو أحوج ما يكون إليه، بل آواه إليه، وهداه إلى طريق الحق بعد الضلال، وأغناه بعد الحاجة والفاقه، فكان لطف الله بنبيه يلاحقه أينما كان، ورعايته ترافقه في كل زمان، وفي هذا من التأييد ما يرفع من عزيمة النبي ـ ﷺ ـ ويطمئن قلبه بالقدر الذي يجعله يتحدى أقوى الصعوبات، ويجابه أشد الأزمات.

كما أن الطباق يعكس التفاوت الشديد بين حاليه ــ ﷺ ـ، حاله قبل البعثة، وحاله بعد البعثة، ويبرز بعد ما بينهما؛ ليكون ذلك أقوى في بث الثقة في نفسه، والطمأنينة في قلبه.

المطلب الخامس

أثر التناسب في اصطفاء أسلوب الشرط

لما جاء البيان القرآني في الآيات السابقة يُذكِّر النبي ـ ﷺ ـ بفضل الله ونِعَمه التي أسبغها عليه من قبل مجيئه إلى الدنيا، مما يبث الثقة في قلب النبي ـ ﷺ ـ ويُثلج صدره بتأييد الله له، ونصره إياه، ومؤازرته له، ناسب ذلك أن تقابل هذه النعم بشكر المُنعِم، فجاءت هذه الآيات توجيهًا وإرشادًا للنبي ـ ﷺ ـ بما يقوم به تجاه نعم ربه عليه، وبيَّن القرآن الكريم كيفية شكر هذه النعم وأداء حقوقها فقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى ٩: ١١] .

والمعنى: "أنك كنت يتيما وضآلا وعآئلا فآواك الله ــ تعالى ــ وهداك وأغناك، فمهما يكن من شيء فلا تنس حقوق نعمة الله ــ تعالى ــ عليك في هذه الثلاث، وأحسن كما أحسن الله إليك، فتعطف على اليتيم فآوِه، وترحم على السائل، وتفقده بمعروفك، ولا تزجره عن بابك، وحدث بنعمة الله كلها، وحيث كان معظمها نعمة النبوة فقد اندرج تحت الأمر هدايته- عليه الصلاة والسلام- للضلال وتعليمه للشرائع والأحكام حسبما هداه الله – ﷻ – وعلمه من الكتاب والحكمة"(١).

والبداية بأمره بالإحسان إلى اليتيم في قوله: (فأما اليتيم فلا تقهر) تحقق نوعًا من التناسب بين هذه الآية وبين قوله: (ألم يجدك يتيمًا فآوى)؛ حيث بدأ هناك بتذكيره بصفة اليتم، وبدأ هنا بأمره بالإحسان إلى اليتامى، وكأنه ما أذاقه اليتم إلا تأديباً بأحسن الآداب؛ ليعرف ضعف اليتيم وذله، وفوق ذلك كفالته، ولهذا قال النبي ـ ﷺ ـ: وَأَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا(٢).

---

(١) تفسير أبي السعود ١٧١/٩ بتصرف يسير.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان ٥٣/٧ رقم ٥٣٠٤ .

ثم ثنى بما هو نهاية له من حيث كونه يصير رأس الخلق فيصير محط الرجال في كل سؤال من علم ومال، فقال: (وأما السائل فلا تنهر) فقد علم مضاضة العيلة، فنهاه عن نهر السائل، فإما أن يعطيه ولو قليلاً، أو يرده رداً جميلاً، وكذا السائل في العلم.

ثم لما ذكر له تفصيل ما يفعل في اليتيم والفقير والجاهل، أمره بما يفعل في العلم الذي آتاه إياه؛ إعلاماً بأنه الآلة التي يستعملها في الأمرين الماضيين وغيرهما؛ لأنها أشرف أحوال الإنسان، وهي أوفق الأمور لأن يكون مقطع السورة؛ لتوافق مطلعها، فقال: (وأما بنعمة ربك فحدث) أي: فاذكر جميع نعمه عليك؛ فإنها نعم على الخلق كافة، وتحديثك بها شكرها، فإنك مرشد يحتاج الناس إلى الاقتداء بك، ويجب عليهم أن يعرفوا لك ذلك، ويتعرفوا مقدارك ليؤدوا حقك، فحدثهم أني ما ودعتك ولا قليتك، ومن قال ذلك فقد خاب وافترى، واشرح لهم تفاصيل ذلك بما وهبتك من العلم الذي هو أضوأ من ضياء الضحى، وقد رجع آخرها على أولها بالتحديث بهذا القسم والمقسم لأجله، وما للملك الأعلى في ذلك من عميم فضله[١].

وقد آثر البيان القرآني فاء الفصيحة[٢]؛ للربط بين هذه الآيات والآيات السابقة، وتقدير نظم الكلام: إذا كنت تعلم ذلك وأقررت به فعليك بشكر ربك، وبيَّن له الشكر بقوله: (فأما اليتيم فلا تقهر...)[٣] الآيات.

وإيثار البيان القرآني استعمال (أما)؛ لما تضمنه من معان مختلفة، تآزرت في التعبير عن المعنى المراد، وتعاونت في إظهار بلاغة النظم القرآني،

---

(١) ينظر نظم الدرر ١١٠/٢٢ وما بعدها .

(٢) والتي يبدو جمالها وروعة دلالتها في تنبيهها على الكلام المقدر. ينظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة: عناية القاضى وكفاية الرَّاضى على تفسير البيضاوي لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (ت: ١٠٦٩هـ)- ١٦٥/٢ – دار صادر – بيروت.

(٣) التحرير والتنوير ٤٠١/٣٠ .

فـ(أما): حرف بسيط، فيه معنى المجازاة، مؤول بـ(مهما يكن من شيء)؛ لأنه قائم مقام أداة الشرط وفعل الشرط، وهو حرف توكيد وتفصيل[١].

أما معنى الشرط المستفاد منه ففيه إيقاظ للنفس، ولفت للانتباه إلى ما سيأتي بعده من أمور تستدعي الإصغاء، وأما معنى التوكيد[٢] فهو ما استدعاه مقام إرادة تثبيت النبي ـ ﷺ ـ وتأييده ، ورد كذب الزعم الذي ادعاه القائلون بأن الله ودع نبيه وقلاه.

وأما معنى التفصيل[٣] فقد تطلبه المقام حين قابل النعم المذكورة في الآيات السابقة وأمره بشكرها في هذه الآيات؛ اعترافًا بفضل الله عليه، وإقرارًا بتوالي النعم عليه.

وقوله: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ) أي: فَلَا تظلمه وَلَا تحتقره[٤]، والمراد: لا

---

(١) ينظر المقتضب للمبرد (ت: ٢٨٥هـ)- ٣/٢٧- تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة- عالم الكتب – بيروت، والجنى الداني في حروف المعاني للمرادي (ت: ٧٤٩هـ) صـ٥٢٢ –تحقيق: د/ فخر الدين قباوة –أ/ محمد نديم فاضل- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٢ م، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب صـ٨٠، وشرح التصريح على التوضيح ٢/٤٢٦ .

(٢) وأما بيان معنى التوكيد فيؤيده ما ذكره الزمخشري بقوله: "وفائدته في الكلام أن يعطيه فضل توكيد، تقول: (زيد ذاهب) فإذا قصدت توكيد ذلك، وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب، وأنه منه عزيمة، قلت: (أما زيد فذاهب) ولذلك قال سيبويه في تفسيره: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، وهذا التفسير مدل بفائدتين: بيان كونه توكيدا، وأنه في معنى الشرط". الكشاف للزمخشري ١/١١٧.

(٣) ويدل على المعنى الثالث ـ وهو التفصيل ـ "استقراء مواقعها وعطف مثلها عليها نحو: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) [الضحى: ٩، ١٠]، (فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ... وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ) [آل عمران:١٠٦، ١٠٧] (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى) [الليل: ٥] (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)[الليل: ٨] الآيات الثلاث". شرح التصريح على التوضيح ٢/٤٢٦ .

(٤) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٥١٣ .

تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في أمر اليتامى تأخذ أموالهم، ويظلمونهم حقهم، فغلّظ الله ـ تعالى ـ الخطاب لنبيه ـ ﷺ ـ في اليتيم، وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره، فالخطاب للنبي ـ والحكم عام له ولغيره[1].

والإيحاء النفسي للكلمة القرآنية (فَلَا تَقْهَرْ) بلغ من الدقة والعمق مبلغًا يتعذر على أهل التفسير ضبطه؛ فلا الظلم ولا التسلط بما يؤذى ولا منع الحق ببالغ في التأثير ما يبلغه قوله تعالى: (فلا تقهر)؛ إذ يجوز أن يقع القهر مع إنصاف اليتيم وإعطائه ماله وعدم التسلط عليه بالأذى، وهذا المعنى أولى من اقتصاره على غلبته بالمال؛ لأن حساسية اليتم بحيث تتأثر بالكلمة العابرة، واللفتة الجارحة عن غير قصد، والنبرة المؤلمة بلا تنبه، وإن لم يصحبها تسلط بالأذى أو غلبة على ماله وحقه[2].

وقوله: (فلا تقهر) جواب (أما)، ووجب تقديم المفعول (اليتيم) على معموله: (تقهر)؛ لأن الناصب له جواب (أما)، والتقديم في هذا للاهتمام بالمقدَّم، وتسليط الضوء عليه؛ لتعلق غرض الكلام به؛ تنبيهًا على ما يجب على المؤمنين فعله تجاه اليتيم، فهو فرد من أفراد المجتمع، ومعاملة المجتمع له هي التي تجعل منه إنسانًا نافعًا أو العكس.

وَأَمَّا السَّائِلَ ففيه قولان: أحدهما: سائل البِر، والثاني: أنه طالب العلم، والمعنى: إذا جاءك السائل فإما أن تعطيه، وإما أن تردَّه ردّاً ليناً. ومعنى (فَلا تَنْهَرْ): لا تزجره، يقال: نهره وانتهره: إذا استقبله بكلام يزجره[3].

والمراد بـ(النعمة) في قوله ـ ﷻ ـ: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) ثلاثة أقوال:

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢٧٤/٣، وتفسير الطبري ٤٨٩/٢٤، والتفسير البسيط للواحدي ١١٤/٢٤.

(٢) ينظر التفسير البياني للقرآن الكريم لعائشة عبد الرحمن ٥٢/١ .

(٣) زاد المسير في علم التفسير ٤٥٩/٤ .

أحدها: النُبُوَّة، والثاني: القرآن، والثالث: أنها عامة في جميع الخيرات[١]، وهذا أولى الأقوال.

وتقديم المفعول (السائل) على معموله: (فلا تنهر)؛ "اهتماماً به إشارة إلى أن جبر الخواطر واستئلاف الخلق من أعظم المقاصد في تمام الدين"[٢]، كما تقدم متعلق الفعل (حدِّث) وهو الجار والمجرور (بنعمة ربك)؛ اهتمامًا بالمقدم؛ "لأن موقع (أما) لا يخلو عن اهتمام بالكلام اهتماما يرتكز في بعض أجزاء الكلام، فاجتلاب (أما) في الكلام أَثر للاهتمام، وهو يقتضي أن مثار الاهتمام بعض متعلقات الجملة، فذلك هو الذي يعتنون بتقديمه"[٣].

وقد كان للتناسب بين هذه الآيات والآيات السابقة أثر في اصطفاء أسلوب الشرط في هذه الآيات؛ بما يبعثه أسلوب الشرط في النفس من إثارة الانتباه، وتحريك الذهن، والتطلع إلى معرفة ما يترتب على الشرط حتى إذا جاء الجزاء صادف نفسًا يقظة مُهيَّأة لاستقباله، فيقع منها موقع القبول، ويتمكَّن المعنى في النفس فضل تمكن.

وقد ساق البيان القرآني أسلوب الشرط في الآيات الثلاث مساق التفصيل بعد الإجمال، والإيضاح بهد الإبهام؛ ليُرى المعنى في صورتين مختلفتين، فيتأكد في النفس؛ "لأن الإشعار بالشيء إجمالًا يقتضي التشوق له، والشيء إذا جاء بعد تشوق يقع في النفس فضل وقوع، ويتمكن فضل تمكن؛ لما مر من أن الحاصل بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب"[٤].

وهذا التفصيل جاء حين ذكر المتعدد أولًا على سبيل الإجمال، ثم عدد أحواله ثانيًا على سبيل التفصيل من غير تعيين؛ ثقة بقريحة السامع وتعويلًا

---

(١) المرجع نفسه ٤٥٩/٤ .

(٢) نظم الدرر ١١١/٢٢ .

(٣) التحرير والتنوير ٤٠١/٣٠ .

(٤) شروح التلخيص ٢١٠/٣ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

على فهمه وذكائه، فكان سبيلًا من سبل توكيد الكلام، وطريقًا من طرق تحقيقه، وهذا ما يسمى باللف والنشر.

فالنشر في قوله: (فأما اليتيم فلا تقهر) يعود إلى قوله: (ألم يجدك يتيمًا فآوى)، والنشر في قوله: (وأما السائل فلا تنهر) يعود إلى قوله: (ووجدك ضآلًا فهدى) – هذا إذا كان المراد بالسائل: طالب العلم–، وجاء النشر في قوله: (وأما بنعمة ربك فحدث) يعود إلى قوله: (ووجدك عائلًا فأغنى) وهذا على سبيل اللف والنشر المرتب، حيث اعتبر هذا الترتيب فأوصاه برعاية حق اليتيم، ثم برعاية من يسأله عن العلم والهداية، ثم أوصاه بشكر نعم الله عليه، فالجمل الثلاث المصدرة بـ(أما) كالتفصيل لتلك الحالات الثلاث على الترتيب؛ ولذلك أتى بالفاء في الأولى، وعطف الآخران عليها بالواو ، والآية الثالثة من الجوامع التي تشتمل على المذكورات وغير المذكورات[1].

أما إذا كان المراد بالسائل: المحتاج أو طالب البر فإن قوله: (وأما السائل فلا تنهر) يكون عائدًا إلى قوله: (ووجدك عائلًا فأغنى) وقوله: (وأما بنعمة ربك فحدث) يكون عائدًا إلى قوله: (ووجدك ضآلًا فهدى) على سبيل اللف والنشر غير المرتب[2].

والحكمة في الترتيب الذي جاء في اللف: موافقة الترتيب الذي حصل في حياة الرسول –ﷺ–؛ فالإيواء من اليتم كان أولا، والهداية جاءت ثانيا قبل النبوة وبعدها، والغنى جاء ثالثا، والحكمة في الترتيب الذي جاء في النشر: أنه جاء بتكاليف يحسن فيها قرن النظائر بعضها مع بعض؛ فالنهي عن قهر

(١) ينظر حاشية الطيبي على الكشاف لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣ هـ)– ٤٩١/١٦ – مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج– المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء– الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم– الطبعة الأولى، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م.

(٢) ينظر المحرر الوجيز لابن عطية ٤٩٥/٥ ، والتحرير والتنوير ٤٠٢/٣٠ .

اليتيم يلائمه النهي عن نهر السائل، وبعد ذلك يحسن الختم بالأمر بالتحديث بما أنعم الله به على رسوله(١).

وقد كان التناسب بين الآيات سبيلًا إلى اصطفاء أسلوب اللف والنشر في البيان القرآني؛ لأنه لما كانت الآيات السابقة تذكيرًا للنبي ــ ﷺ ــ بنعم الله عليه؛ حيث آواه وهداه وأغناه، ناسب ذلك أن يأتي أسلوب اللف والنشر؛ ليؤكد على كيفية شكر هذه النعم، ويقرر السبيل إلى أداء حقها؛ فإن من ذاق مرارة اليتم يكون أكثر شعورًا بحاله، فيستدعي الرفق به والعطف عليه، وكذا الحال في نعمة الهداية والإغناء فإن من رزق إياهما بعد الحاجة يكون أدعى للرفق بحال من حُرِم منهما، فكان اللف والنشر سبيلًا إلى تقرير هذه الحقائق، وتمكينها في النفس؛ حثًا على تحقيقها، والترغيب فيها.

ومن جهة أخرى فإن اللف والنشر هنا قد بلغ القمة في الدقة والبراعة؛ إذ استطاع أن يلفت انتباه النبي ـ ﷺ ـ إلى ما ينبغي عليه القيام به تجاه نعم الله ـ ﷻ ـ من طريق غير مباشر، فلم يذكر النعمة ثم ما يجب عليه تجاهها، وإنما ذكرها بطريق الإجمال أولًا ثم التفصيل ثانيًا؛ لأنه نوع من التكرار، والتكرار مما يتناسب مع مقام التثبيت؛ لما يبعثه في النفس من مشاعر الثقة، والطمأنينة، والسكينة، والأنس التي تعمل على التثبيت والتمكين في مثل هذه المواقف التي تتزعزع فيها النفس البشرية، وتحتاج إلى مزيد من الدعم والتثبيت بطريق تقوية قلب النبي ـ ﷺ ـ بذكر الدليل والبرهان على سبق الإنعام، فما كان الله ليرعى نبيه ـ ﷺ ـ ويحفظه قبل البعثة ثم يتركه ويودعه بعدها.

وعطف الجزاء على الشرط بالفاء في الآيات الثلاث: (فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدث) فيه حث شديد على المسارعة إلى الامتثال، وتنفيذ الطلب؛ لدلالته على أن الأمر لا يقبل التراخي

---

(١) ينظر البلاغة العربية لابن حَبَنَّكَة الميداني (ت: ١٤٢٥هـ)،٤٠٦/٢ ، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

أو التأخير؛ لتعلق النهي في الآيتين بحق الغير وهما السائل واليتيم، وتعلق الحق في الآية الثالثة بالله ـ ﷻ ـ وهو مما لا يقبل الإمهال أو التأجيل بحال من الأحوال؛ فجزاء الإحسان تعقيب الإحسان، وجزاء النعم تعقيب شكرها.

وقد تساوت أجزاء الفاصلتين في قوله: (فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر) كأنما وضعت في قالب واحد، وأفرغت إفراغًا واحدًا، فكان هذا من أشرف السجع منزلة، وأعلاه درجة للاعتدال الذي فيه(١).

وتكمن بلاغة السجع فيما يحدثه توافق الفواصل من قوة التأثير في النفس؛ ليكون ذلك أنشط للأسماع، وأحفظ للقلوب؛ تنبيهًا على أهمية مراعاة حق اليتيم والسائل، وإلهابًا للمشاعر للقيام بما يجب تجاههما، واستثارة للعزائم والهِمم للسباق إلى القيام بشئونهما.

كما ناسب التنبيه على أهمية مراعاة حق اليتيم والسائل ما جاء عليه النظم القرآني من الجناس اللاحق في قوله: (تقهر، وتنهر)؛ لكي تهتز القلوب لأثر هاتين اللفظتين، وتنجذب الأسماع إليهما، ولكن سرعان ما تجد الاختلاف بين معنى كل منهما، فالقهر بما فيه من معنى الغلبة يتلاءم مع ضعف اليتيم وعجزه، والنهر بما فيه من معنى الزجر يتلاءم مع حاجة السائل وانكساره، ولما تشابه حال كل منهما مع الآخر في الحاجة إلى غيره ناسب ذلك مجيء الجناس اللاحق في الفعل المنهي عنه فيهما (فلا تقهر. فلا تنهر).

وإيثار البيان القرآني للفظ التحديث دون الإخبار في قوله: (فحدِّث)؛ لأن الإخبار يكون عن النفس وعن الغير، وأصله: أن يكون الإخبار به عن غيرك، والحديث في الأصل: هو ما تخبر به عن نفسك من غير أن تسنده إلى غيرك، وسمي حديثًا؛ لأنه لا تقدّم له، وإنما هو شيء حدث لك، فحدثت به ثم

---

(١) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير الكاتب (ت: ٦٣٧هـ) صـ٢٥٣ – تحقيق/ مصطفى جواد– مطبعة المجمع العلمي– ١٣٧٥هـ.

كثر استعمال اللفظين حتى سمي كل واحد منهما باسم الاخر، فقيل للحديث خبر وللخبر حديث"[١].

وكأن البيان القرآني حين آثر لفظ التحديث إنما يومئ من وراء هذا إلى بيان الكيفية التي يشكر بها النبي ـ ﷺ ـ نعم ربه التي تتوالى عليه؛ لأنه لما كان عطاء الله دائمًا لا ينقطع فإن التحديث بنعم الله سيكون على الدوام بلا انقطاع، وفي هذا تذكير بأن كل خير يصيبه، وكل شر يخطئه إنما مرده إلى فضل الله وكرمه؛ "ليكون ذلك عنده حديثاً لا ينساه، ويوجده ساعة غب ساعة"[٢].

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها: أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات صاحبها، ومحض جوده وإحسانه، فهو ثناء عليه بإظهارها، والمتحدث بها شاكر له، مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء عليه، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره، وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس، ويريهم أنه أعز منهم وأكبر فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة[٣].

وإنما تأخر حق الله عن حق اليتيم والسائل؛ لأن تقديم المحتاج أولى كأنه يقول: أنا غني وهما محتاجان، أو لاقتران حق اليتيم والسائل بالفعل واقتران حق الله بالقول، أو لأن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب في ذكر الله فختمت به[٤]، أو لأن حق الله ـ تعالى ـ مبناه على المسامحة، أما حقوق العباد فمبناها على غير المسامحة، فقدمها لذلك تأكيدًا على الوفاء بها، وعدم

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري صـ٤٠ .

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف ٤٩١/١٦ .

(٣) ينظر تفسير القرآن العظيم «جزء عم» لعبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن قاسم العاصمي صـ١٢٤– دار القاسم للنشر، المملكة العربية السعودية– الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

(٤) ينظر حاشية الطيبي على الكشاف ٤٩١/١٦ .

التفريط فيها.

وقد ختمت فاصلة الآية الكريمة: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) بحرف الثاء، فجاءت خلافًا للنسق القرآني؛ حيث خُتمت الآيتان السابقتان بحرف الراء في قوله: (تقهر، وتنهر) ولم يقل: (فخبر) مثلًا على غرارهما؛ وذلك لإيضاح المقصد والغرض من التحديث بنعم الله؛ إذ ينبغي أن يكون هذا على سبيل شكرها، من خلال نبرة هادئة تتحقق مع حرف الثاء في (فحدث) دون حرف الراء في (فخبر)، فكان مخالفة النسق القرآني " لأمر تقتضيه حساسية معنوية بالغة الدقة في اللطف والإيناس! هي أن حديثه بنعمة ربه ينبغي أن يكون خافتًا في نبرته، وفي الفرط بعد الفرط حتى لا يذهب به هذا الحديث مذاهب الغرور أو الرياء، ورسول الله ــ وإن كان معصوما من هذا ــ فإن أمته من ورائه في كل خطاب إلا ما كان مختصا به، وهذا ليس واحدا منها... أما النهي عن قهر اليتيم، وقهر السائل فذانك من المعاني التي تستثار لها النفوس حتى تنفعل بها انفعال طاعة وانقياد"[1].

(١) خصائص التراكيب صـ٣٦١، ٣٦٢ بتصرف.

الخاتمة

وبعد السير في رياض معاني سورة الضحى، وارتقاء الروح معارج أساليب السورة المباركة، وتنسم النفس عبير التناسب بين آياتها، تأتي خاتمة البحث التي تحوي أهم النتائج وهي كالآتي:

١ – ارتباط آيات القرآن بعضها ببعض حتى كأنها كلمة واحدة تناسب مبناها واتحد معناها، وهذا يدل على أن كل آية من آياته في موضعها الذي لو قدمت أو أخرت عنه لذهبت البلاغة والإعجاز.

٢ – علم التناسب سبيل إلى تثبيت الإيمان في القلوب، وترسيخ العقيدة في الأفئدة؛ لأنه سبيل من سبل الكشف عن إعجاز القرآن الكريم، فهو يُظهر التلاؤم بين الجملة وأختها من حيث الترتيب، وكذا بين الكلمات وتركيبها في الجملة، ومن ثم فإن دور هذا العلم يتجلى في المساعدة على فهم النص القرآني، وإيضاح معناه، والإسهام بشكل بارز في الإعانة على حفظ آياته؛ بما له من أثر كبير في الربط بين الآيات، وإنماء الصلات والروابط بينها.

٣ – تضافرت أساليب السورة الكريمة ما بين قَسَم ونفي واستفهام وتأكيد وشرط وغير ذلك مما اتضح من خلال البحث، وهذه الأساليب على تنوعها واختلافها إلا أنها تعانقت، واتحد هدفها، والغرض الذي سيقت لأجله، وهو طمأنة قلب النبي ـ ﷺ ـ وبث اليقين في نفسه؛ ليكون هذا الاختبار من الله ـ ﷻ ـ لنبيه ـ ﷺ ـ تمهيدًا لما هو مقبل عليه من اختبارات أخرى من شأنها أن تُقوّي قلبه، وتثبته على الدوام.

٤ – مطابقة الأساليب لمقتضى معاني الآيات؛ حيث تجد التناسب بين الآية وأختها هو الذي استدعى كل أسلوب من أساليب السورة الكريمة، وجاء به في موضعه، فكما كانت كل آية تستدعي أختها فإن كل تناسب بين الآيات يستدعي الأسلوب الذي جاءت عليه الآيات.

٥ – يعد التوكيد ـ على اختلاف طرقه ووسائله ـ سبيلًا من أكثر السبل التي جاء عليها نسق السورة الكريمة؛ لتحقيق الغرض الذي سيقت لأجله،

والهدف الذي سعت إليه، وهو التثبيت والدعم والتأييد والتبشير، بل يمكن القول إن كل أسلوب من الأساليب في السورة كان الغرض منه التأكيد على المعنى الذي نادت عليه الآيات.

٦ – تنوع الأسرار البلاغية الكامنة وراء استعمال كل أسلوب من أساليب السورة الكريمة، والتي دعا إليها التناسب بين آياتها، وكان كل أسلوب، بل كل كلمة، بل كل حرف من حروفها يتناغم مع ما يجاوره ويتلاحم من أجل تحقيق المغزى الأصيل الذي دعت إليه سورة الضحى.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

د/ منى طه الداودي محمد
مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

فهرس المصادر والمراجع

-القرآن الكريم

-الإتقان لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت : ١٣٩٣هـ)- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان- ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

-بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)- دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

-البرهان في علوم القرآن للزركشي (ت: ٧٩٤هـ)- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م- دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)- المحقق: محمد علي النجار- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

- البلاغة العربية لابن حَبَنَّكَة الميداني (ت: ١٤٢٥هـ)، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

-التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)- تحقيق: محمد حامد الفقي- دار المعرفة، بيروت، لبنان.

-التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)- الدار التونسية للنشر - تونس- ١٩٨٤ هـ.

-التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم، محمد بن أحمد الغرناطي (ت: ٧٤١هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي- شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت- الطبعة الأولى - ١٤١٦ هـ.

- تفسير ابن عباس= تنوير المقباس من تفسير ابن عباس لعبد الله بن عباس

– رضي الله عنهما – (ت: ٦٨هـ)– جمعه: مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)– دار الكتب العلمية – لبنان.
– تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي (ت: ٩٨٢هـ)– دار إحياء التراث العربي – بيروت.
– التفسير البسيط لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ) – الناشر: عمادة البحث العلمي– جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية– الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ.
–التفسير البياني للقرآن الكريم لعائشة عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت: ١٤١٩هـ)– دار المعارف – القاهرة – الطبعة السابعة.
–تفسير البيضاوي= أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) – تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي– دار إحياء التراث العربي – بيروت– الطبعة الأولى– ١٤١٨ هـ.
– تفسير القرآن العظيم «جزء عم» لعبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن قاسم العاصمي– دار القاسم للنشر، المملكة العربية السعودية– الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.
–تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)– مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥ هـ،١٩٤٦م.
–تفسير مجاهد لأبي الحجاج مجاهد القرشي المخزومي (ت: ١٠٤هـ) تحقيق: د/ محمد عبد السلام أبو النيل– دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر– الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩ م.
– تفسير مقاتل بن سليمان لأبي الحسن مقاتل بن سليمان الأزدي البلخى (ت: ١٥٠هـ)– تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤٢٣ هـ .
– تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي، تحقيق/ عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان – الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

-تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، (ت: ٣٧٠هـ)- تحقيق: محمد عوض مرعب- دار إحياء التراث العربي – بيروت.
-جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) – تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ م.
-الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لضياء الدين المعروف بابن الأثير الكاتب (ت: ٦٣٧هـ) – تحقيق/ مصطفى جواد- مطبعة المجمع العلمي- ١٣٧٥هـ.
-الجنى الداني في حروف المعاني لبدر الدين بن عليّ المرادي المصري المالكي (ت: ٧٤٩هـ) تحقيق: د/ فخر الدين قباوة-أ/ محمد نديم فاضل- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان- الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.
-حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة: عناية القاضي وكفاية الرَّاضي على تفسير البيضاوي لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي المصري الحنفي (ت: ١٠٦٩هـ)- دار صادر – بيروت.
-حاشية الطيبي على الكشاف= فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي (ت: ٧٤٣ هـ) – مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج- المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء- الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم- الطبعة الأولى، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م.
-خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني أ/د. محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة-الطبعة السابعة.
-الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لأبي العباس، المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ) تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط دار القلم، دمشق.
-دلائل النبوة لأبي بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)- تحقيق: د/ عبد المعطي قلعجي- دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبد الباري عطية- دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

-زاد المسير في علم التفسير لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) تحقيق: عبد الرزاق المهدي- دار الكتاب العربي – بيروت- الطبعة الأولى – ١٤٢٢ هـ.

– سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي (ت: ٢٧٩هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض- شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي،مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م.

– شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو لخالد بن عبد الله الجرجاويّ الأزهري، زين الدين المصري (ت: ٩٠٥هـ)- دار الكتب العلمية –بيروت–لبنان- الطبعة الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

– شرح سنن ابن ماجه لمغلطاي بن قليج المصري الحنفي (ت: ٧٦٢هـ) – المحقق: كامل عويضة- مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية.

-شروح التلخيص – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

– صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسننه وأيامه للبخاري- تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر- دار طوق النجاة- الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

-علم المناسبات في السور والآيات للسيوطي تحقيق/ محمد بن عمر بن سالم بازمول ـ المكتبة المكية – الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

– الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري(ت: نحو ٣٩٥هـ) -حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم- دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

-القاموس المحيط للفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)- تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة- إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي – مؤسسة الرسالة

للطباعة والنشر، بيروت – لبنان– الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.
–الكتاب لسيبويه (ت: ١٨٠هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون– مكتبة الخانجي، القاهرة– الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.
–الكشاف للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) – دار الكتاب العربي – بيروت– الطبعة الثالثة – ١٤٠٧هـ.
–الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأحمد بن محمد الثعلبي (ت: ٤٢٧هـ)– تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة أ/ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.
–الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. لأبي البقاء الكفوي (ت: ١٠٩٤هـ)– تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
–اللامات لعبد الرحمن بن إسحاق النهاوندي الزجاجي (ت: ٣٣٧هـ)، تحقيق: مازن المبارك،دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
–لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد الخازن (ت: ٧٤١هـ) – تصحيح: محمد علي شاهين– دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
– اللباب في علوم الكتاب لسراج الدين الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: ٧٧٥هـ)– تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى١٤١٩ هـ، ١٩٩٨م.
– لسان العرب لابن منظور الأنصاري (ت: ٧١١هـ)– دار صادر – بيروت– الطبعة الثالثة – ١٤١٤ هـ.
– المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد– دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة الأولى – ١٤٢٢ هـ.
–مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، مكتبة المعارف – الرياض – الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م .

-معارج التفكر ودقائق التدبر لابن حبنكة الميداني – دار القلم- دمشق – الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
-معاني القرآن للفراء (ت: ٢٠٧هـ)- تحقيق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار/ عبد الفتاح إسماعيل الشلبي- دار المصرية للتأليف والترجمة- مصر-الطبعة الأولى.
-معاني النحو د. فاضل صالح السامرائي- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن- الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
-معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي (ت: ٩١١هـ)-دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان-الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
-معجم مقاييس اللغة للرازي (ت: ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون- دار الفكر- ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
-مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام (ت: ٧٦١هـ) – تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله- دار الفكر – دمشق- الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.
-مفاتيح الغيب = التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)- دار إحياء التراث العربي – بيروت- الطبعة الثالثة - ١٤٢٠ هـ .
-المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)- تحقيق: صفوان عدنان الداودي- دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت – الطبعة الأولى- ١٤١٢ هـ .
-المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) تحقيق: د/ علي بو ملحم- مكتبة الهلال – بيروت- الطبعة الأولى، ١٩٩٣م .
-المقتضب للمبرد (ت: ٢٨٥هـ) تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة- عالم الكتب. – بيروت.
-الموسوعة القرآنية، خصائص السور لجعفر شرف الدين ــ تحقيق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي- دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت-

الطبعة الأولى – ١٤٢٠ هـ.
–النبأ العظيم لمحمد بن عبد الله دراز (ت : ١٣٧٧هـ)–اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية – قدم له : أ. د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني– دار القلم للنشر والتوزيع– الطبعة ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥م.
–نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) – دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
ملخص البحث	١٦٢٩
المقدمة	١٦٣١
التمهيد	١٦٣٤
المطلب الأول: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب القسم	١٦٣٩
المطلب الثاني: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب النفي الواقع في جواب القسم	١٦٤٧
المطلب الثالث: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب التأكيد	١٦٥١
المطلب الرابع: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب الاستفهام	١٦٦٠
المطلب الخامس: أثر التناسب في اصطفاء أسلوب الشرط	١٦٦٧
الخاتمة	١٦٧٧
فهرس المصادر والمراجع	١٦٧٩
فهرس الموضوعات	١٦٨٦